نور الدين محمود زنكي

صاحب منبر الدفاع عن القدس

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م



الكويـت - مدينة سـعد العبدالله - الدائري السـادس - ق3 - م28
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

الموزعون المعتمدون

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 4925192

أروقة للدراسات والنشر
(عمّـان)
info@arwiqa.net
(+962) 64646163

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

شخصيات تاريخية

(٢)

نور الدين محمود زنكي

صاحب منبر الدفاع عن القدس

إعداد

غانم شيحان جويعد الشمري

عضو الجمعية التاريخية الكويتية

دار الظاهرية للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة الناشر

آلت دار الظاهرية على نفسها نشر كل ما هو مفيد للقارئ، في كل منحى من مناحي الحياة، وفي كل مجال، سواء في الشريعة أو الأدب أو اللغة أو الثقافة أو التاريخ..الخ.

ودار الظاهرية، منذ تأسيسها وحتى اليوم، تسير في خط واضح، وهو تقديم الكتب التي تحمل طابع الأصالة والفكر المستنير، وهي لن تحيد عن هذا الأمر، وسوف تستمر في تقديم كل ما يمكن أن يرتقي بالقارئ، ويوسعه مفاهيمه ومداركه.

وانطلاقـاً من ذلك، وانطلاقـاً من المبادئ التي تؤمن بها الدار، فإنها تبدأ في تقديم سلسلة «شخصيات تاريخية» لتضع كل ما كانت تفكر وتؤمن به على أرض الواقع، بهدف تسليط الضوء على شخصيات عربية وإسلامية وحتى أجنبية، نذرت نفسها للإنسانية وقدمت الكثير لبلادها وأمتها.

ولأننا ندرك أهمية انتقاء الشخصيات وقيمتها، كي نضع تاريخها بين يدي القارئ، فإننا سوف نسعى إلى اختيار شخصيات كان لها أثر ملموس في حياتها، وعلى من حولها من مختلف العصور.

ونعد القارئ بأن نستمر على هذا المنوال، وأن نزيل الغبار عن الكثير من الشخصيات المؤثرة، ونقد له وجبة دسمة من «شخصيات تاريخية» صنعت المجد لنفسها ولأمتها.

وهذا هو الكتاب الثاني الذي تصدره الدار من هذه السلسلة بعد الكتاب الأول الذي كان بعنوان: «عماد الدين زنكي..فاتح الرها» للمؤلف نفسه.

الناشر

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الغالية أبرار:

فلذة كبدنا التي غيّبها الموت في صباها..

إلى من اقتطعت جزءاً من روحنا ورحلتْ..

إلى من أبكانا رحيلها وأحرق قلوبنا..

لن ننساكِ ..

مادامت الدماء تسري في عروقنا..

ومادامت الروح تنبض بالحياة..

وسيبقى يوم ١٥/ ١٠/ ٢٠١٠ محفوراً في ذاكرتنا..

لأنه كان يوم الفراق..

خالك غانم

قالوا عن نور الدين محمود

* طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، مِلِكًا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه.

ابن الأثير

***

* كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائنًا من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

ابن الأثير

***

* الملك العادل أعف الملوك وأتقاهم، وأثقهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم، وأجهدهم،وأطهرهم وأظهرهم، وأقواهم وأقدرهم، وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأيًا، وأوضحهم آيًا، وأصدقهم قولاً.

عماد الدين الأصفهاني

***

* كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأن على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا.

الحافظ ابن العساكر

***

❊ لم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتـاً وقوراً، وكان عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا.

ابن كثير

❊❊❊

❊ كان عهد نور الدين الذي انتهى بموته، التمهيد لنجاح صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية وفي نصر حطين وتحرير القدس.

شاكر مصطفى

❊ كان أحذق وأحكم من والده عماد الدين.

متى الرهاوي

❊❊❊

❊ كان نور الدين حاكمـاً عظيمـاً، ورجلاً صالحـاً، وأحب العدالة وآثرها على كل الأمور.

كارل بروكلمان

❊❊❊

❊ كاننور الدين زنكي يتمتع بالكفاية والقدرة.

آرنست باركر

❊❊❊

❊ ماااتصف به من رجاحة العقل، تجاوزت سنوات عمره، أثار إعجاب أعدائه، لما اشتهر به من العدالة والإحسان والتقوى الصادقة، وفاق نور

الدين والده، بما اشتهر به في الحكم على الرجال، واختيارهم، فاشتهر وزراؤه وقادته بالكفاية والإخلاص.

ستيفن رنسيمان

❊❊❊

❊ لعب نور الدين دوراً رئيسـاً في وثبة الإسلام ضد الفرنج، وبالنسبة له كان هناك تداخل بين الجهاد وإعادة التسليح المعنوي والتمسك بأهداب العقيدة القويمة، الذي تميز باستقامة عظيمة في حياته وبوَرَعٍ عميق، قد ناضل في آن واحد ضد الانحرافات عن العقيدة القويمة وضد الفرنج».

ميشيل بالار



من أقوال نور الدين محمود

❊ **قال عن العلماء:** هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا.

❊ **قال عن البدع في الدين:** نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل.

❊ نحن شحن للشريعة، أي الشرطة والقوة المهيمنة على تنفيذها، نمضي أوامرها.

❊ **قال مخاطبًا أحد ولاته:** انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميِّز بين المحاسن والمساوئ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة.

❊❊❊

المقدمة

على أي مؤرخ أو كاتب أو قارئ في التاريخ أن يقف طويلاً عند شخصية نور الدين محمود زنكي، فهذه الشخصية التي لم تأخذ حقها من الدراسة والاطلاع وتسليط الضوء، كانت من أعظم الشخصيات التي عرفها تاريخنا الإسلامي بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز.

نور الدين، الذي وُصِف بالملك العادل، آمن بهدف واحد، وهو تحرير بيت المقدس من الصليبيين، كما آمن به غيره من القادة الذين سبقوه، لكنه اختلف عنهم بإيمانه المطلق لهذه القضية، واخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، كما أنه هيأ كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى تحرير الأقصى، بدءاً من المدارس، إلى العلماء، الذين شمّروا عن سواعدهم وبدؤوا بكتابة المؤلفات حول الجهاد وأهميته وحث المسلمين على الجهاد إلى العامة من الناس.

نورالدين محمود جعل تحرير بيت المقدس قضيته الأولى بل والوحيدة، لدرجة أن كل من حوله آمن بهذه القضية، إيمانـًا لا يقل عنه، ومنهم تلميذه صلاح الدين الأيوبي. ولدرجة إيمان الملك العادل بهذه القضية بنى منبراً تعب عليه النجارون – كما يقولو المؤرخون – كي يضعه في المسجد الأقصى بعد تحريره. ولكن المنية لم تمهله،وشاءت الأقدار أن تلميذه صلاح الدين يحرر بيت المقدس، ويضع هذا المنبر في المسجد الأقصى حتى سُمّي فيما بعد بمنبر صلاح الدين.

نور الدين محمود، كان عن أمَّة، بدأ في إمارة حلب، ثم أصبحت المدن الكبيرة تابعة له كدمشق والموصل ثم مصر، ومن ثم مهّد لصلاح الدين الأيوبي ليقيم دولته التي سميت بالدولة الأيوبية.

من أجل كل ذلك، كان لابد من هذا الكتاب، الذي يهدف في المقام الأول تسليط الضوء على هذا القائد المخلص وعلى هذا الملك العادل الذي ندر التاريخ أن يأتي بمثله.

■ **وهذا الكتاب ينقسم إلى ستة أبواب:**

❊ **الباب الأول بعنوان شخصية الملك العادل، وينقسم إلى ثلاثة فصول، هي:**

- **الفصل الأول:** بداية نور الدين.
- **الفصل الثاني:** أمير حلب.
- الفصل الثالث: الرها من جديد.

❊ **أما الباب الثاني فكان بعنوان: الحملة الصليبية الثانية وينقسم إلى ثلاثة فصول هي:**

- **الفصل الأول:** الجيوش الصليبية تتجه نحو حلب.
- **الفصل الثاني:** تغيير المسار إلى دمشق.
- **الفصل الثالث:** فشل الحملة.

❊ **بينما الباب الثالث بعنوان: المواجهة مع صليبيي المشرق ويضم أربعة فصول هي:**

- **الفصل الأول:** مقتل ريموند وأسر جوسلين.
- **الفصل الثاني:** خسارة عسقلان.
- **الفصل الثالث:** نور الدين يفتح قلوب أهل دمشق.
- **الفصل الرابع:** انتصارات متعددة.

❋ **والباب الرابع بعنوان: غمة تصيب المسلمين، ويضم فصلاً واحداً بعنوان: مرض نور الدين وشفاؤه.**

❋ **الباب الخامس: الصراع على مصر.**

- **الفصل الأول**: الحملات النورية الصليبية على مصر.

❋ **الباب السادس: وفاة الملك العادل.**

- **الفصل الأول**: سقوط قلعة جعبر.
- **الفصل الثاني**: ختان الولد وموت الوالد.

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب في ميزان أعمالي، ويفيد شباب الأمتين العربية والإسلامية.

غانم شيحان جويعد الشمري

٢٣/ ١٠/ ٢٠١٧م

❋❋❋

الباب الأول

شخصية الملك العادل

- الفصل الأول: بداية نور الدين
- الفصل الثاني: أمير حلب
- الفصل الثالث: الرها من جديد

الفصل الأول

بداية نور الدين

لا نعرف الكثيرعن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقرقبل توليه الحكم، ولا عن طفولته، ولم يذكر المؤرخون سوى شذرات قليلة عنه في تلك المرحلة، وبعض المعلومات المتناثرة هنا وهناك، وأغلبها مرتبطة بمرحلة أبيه عماد الدين.

وكما هو معلوم، فإن نور الدين من الجيل الثاني الذي تولى زمام الأمور بعد انهيار دولة السلاجقة، وهو ابن الأتابكيات، فقد استلم حكم أتابكية حلب من والده المؤسس لها.

كان جده آق سنقر من المقربين جداً للسلطان ملكشاه، أحد السلاطين العظام، لكنه قُتِل على يد تتش ابن السلطان ألب أرسلان نتيجة لإخلاصه لمولاه ملكشاه.

وترك آق سنقر ابنه عماد الدين الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره، وتولى رعايته أصدقاء أبيه، حتى كبر واشتد عوده، وشارك في الكثير من الحروب، وأصبح من أبرز القادة المسلمين على الساحة السياسية والعسكرية.

ولد نور الدين محمود في شوال ٥١١هـ/ ١١٧م، وهو العام الذي حاول فيه أمير الموصل جيوش بك، الذي كان أتابكـًا لمسعود ابن السلطان محمود، الاستيلاء على السلطة من السلطان محمود[١] الذي اعتلى العرش بعد أبيه،

(١) السلطان محمود: استلم الحكم يوم الجمعة ٢٥ ذي الحجة ٥١١هـ، وتوفي عام ٥٢٥هـ في همذان. ابن الأثير: عز الدين الشيباني، الكامل في التاريخ ص١٦٠٠، أبو شامة: شهاب الدين المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ ص١٥٨

وذلك لتنصيب مسعود سلطاناً على السلاجقة، وسانده في ذلك عماد الدين، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل[١].

ويمكن تقسيم فترة نور الدين مع والده إلى فترتين، الأولى: من ٥١١هـ إلى ٥٢٠ هـ، والثانية: من ٥٢١هـ إلى ٥٤١هـ، والفترة الأولى التي لم يكن فيها نور الدين يتجاوز الحادية عشرة من عمره، هي فترة بداية عماد الدين على المستوى المحلي، بينما كانت الفترة الثانية، عبارة عن صعود نجم عماد الدين زنكي على الساحتين السياسية والعسكرية، وتنقلاته الكثيرة في قتاله وحروبه، وهي التي أصبح فيها عماد الدين أميراً للموصل، ومن ثم المجاهد الأول في المنطقة، ومرعب الصليبيين، الذين باتوا يحسبون له ألف حساب، حتى أضحى القائد الذي عقدت عليه الأمة الإسلامية، الآمال الكبيرة، خصوصاً بعد نجاحه في فتح إمارة الرُّها قبل مقتله بسنتين، وتحديداً في ٥٣٩هـ.

ونور الدين هو الابن الثاني لعماد الدين بعد سيف الدين غازي الابن الأكبر، بالإضافة إلى شقيقين آخرين هما: نصرة الدين أمير أميران، وقطب الدين مودود. وبالتأكيد فإنهم جميعاً تعلموا الكثير من أبيهم،وأخذوا الكثير من صفاته، كلٌّ حسب سِنّه وتفكيره، لاسيما في شجاعته وهمته العالية، بل إن أهم ما ورثوه عنه قتالهم للصليبيين.

ولا شك أن أبناء عماد الدين ذاقوا لذة الفرح، وعاشوا نشوة النصر، الذي كان يحققه عماد الدين، كباقي المسلمين، لكن البطل في نهاية الأمر هو أبوهم، الذي تمكن من تخليد اسمه في التاريخ، ولهذا كان فرحهم ونشوتهم بالنصر مضاعفاً. وهو ما جعلهم يسيرون على دربه، ويتبنون فكره.

---

(١)الصلابي: علي محمد، الدولة الزنكية ص٣٨

وكانت حياة عماد الدين في فترة حكم الموصل من ٥٢١هـ-٥٤١هـ بالنسبة لنور الدين، مدرسة تعلّم فيها ذلك الشاب المتطلع إلى الحياة، كل شيء، وفي جميع المجالات السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية[١] وقد شاركه في الكثير من حروبه.

ولا يختلف اثنان على أن نور الدين في طفولته عاش حياة مرفهة، على اعتبار أنه كان ابناً لقائد كبير، وله ميزات خاصة من قبل سلاطين السلاجقة، والولاة الذين كان يتبعهم في كل فترة.

وملازمة نور الدين محمود لوالده وهو في مقتبل العمر، أدت إلى تكوين شخصيته منذ البداية تكويناً حسناً، وجعلت منه ذلك الشاب القوي الذي استطاع أن يُخيب آمال الصليبيين، عندما حانت الفرصة. ولكن مع ذلك لم يكن له أي نشاط يذكر في حياة أبيه، كحال إخوته، إلا أنه كان يقدمه عليهم، فضلاً عن انشغاله بالعلم، وهذا ما جعل شخصيته مختلفة عن غيره.

كان نور الدين معتدل القامة، أسمر اللون واسع الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح، وكان زنكي يقدمه على أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة، وفتح في أيام سلطته نيفاً وخمسين حصناً»[٢].

ومع مرور السنين وتحديداً عندما استلم نور الدين محمود حكم حلب بعد وفاة أبيه، وهو في الثلاثين من عمره، اتضحت شخصيته القوية والحازمة، فقد كان مهيباً، مخوفاً، مع لينه، ورحمته، وكانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف، يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم

(١) الصلابي: المصدر نفسه ص١٦٧

(٢) ابن تغري: جمال الدين أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرةج٦ ص٧١

بوظائف الخدمة، وكان مجلسه لا تُؤبن فيه الحرم، ولا يُذكر فيه إلا العلم، والدين، وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد، وقصْد بلاد العدو[١].

وقد اجتمع له مالم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس المُلك مع أجناده وأصحابه، إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة، الصغير منهم والكبير[٢].

ووصف الحافظ ابن عساكر الدمشقي شخصية نور الدين بكلمات قصيرة: «كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا»[٣].

وقال ابن تغري بردي: «..ومصر أيضـًا من جملة فتوحاته، وأيضـًا ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب»[٤].

ولم يُسمع من نور الدين كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتـًا وقوراً». وإذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير، يقوم له ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه، كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئـًا كثيراً يقول: «هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا.وكان أعف الملوك وأتقاهم وأثقبهم وأنقاهم وأصلحهم عملاً وأرجحهم رأيـًا، وأوضحهم آيـًا، وهو الذي أعاد الإسلام إلى بلاد الشام، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقايلها، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد

---

(١) ابن الأثير: عز الدين الشيباني، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص١٧٣

(٢) أبو شامة: الروضتين ج١ ص١٠٧

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٧٣

(٤) ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٦ ص٧١

الشام قطايع فقطعها، وعفى رسومها، ومنعها ونصره الله عليهم مراراً حتى أَسِر ملوكهم، وبدد سلوكهم، وصان الثغور وحماها عنهم[١].

وقال عنه الذهبي: «نور الدين الشهيد».

وقال ابن كثير: إنما يقول الناس: «نور الدين الشهيد، لما حصل له في حلقه بالخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد»[٢].

وكان نور الدين مثل أبيه زنكي، في الشجاعة، والحزم والإخلاص، والطموح، إنما تميز عنه بتقواه، وزهده، وسلامة نيته، فقد كان يعتقد بأن الله قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة، ولهدف جهادي واحد[٣]. وقد اعتبره متى الرهاوي بأنه: «أحذق وأحكم من أبيه عماد الدين»[٤].

وقال عنه المؤرخ الإنجليزي آرنست باركر: «كان يتمتع بالكفاية والقدرة»[٥]

ووصفه وليم الصوري بأنه كان: «أميراً عادلاً وشجاعـاً وحكيمـاً»[٦].

وذكر المؤرخ الإنجليزي ستيفن رنسيمان: «كان نور الدين حاكمـاً عظيمـاً، ورجلاً صالحـاً، وأحبَّ العدالة، وآثرها على كل الأمور، على أن جانبـاً من نشاطه زايله بعد المرض الذي ألَمَّ به قبل تسعة عشر عامـاً، وصار يُنفق معظم

(١) الأصفهاني: عماد الدين الكاتب أبو عبد الله، سنا البرق الشامي، اختصار الفتح البنداري ص١٦

(٢) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي، البداية والنهاية ج ٨ ص٤٨٥

(٣) زكار: سهيل، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ص٤٨

(٤) آل فتاح: شكيب راشد، صورة نور الدين محمود في تاريخ الرهاوي المجهول، مجلة التربية والعلم – المجلد (١٧)، العدد (٤) لسنة ٢٠١٠،ص٥٩ قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة الموصل.

(٥) باركر: آرنست، الحروب الصليبية ص٧٢

(٦) الصوري: وليم، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لمؤرخ بيت المقدس ج٢ ص٩٦٩

وقته في أعمال الخير والتقوى، ورغم ما اتسمت به تقواه من التزمت والضيق، فإنها أكسبته احترام رعاياه وأعداءه سواء، كان شديد التقشف، وقلَّ أن ابتسم، والتزم البساطة في حياته، وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وآثر أن ينفق موارده على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقظاً»[١].

وكان يحب ممارسة لعبة الكرة أو الصولجة أو البولو[٢] فهو «من أحسن لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان[٣] فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب».

وذات مرة راسله صديق له بالجزيرة من الصالحين، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يُدمن اللعب بالكرة، فأرسل إليه يعاتبه قائلاً: «ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتُعذّب الخيل لغير فائدة دينية»[٤].

فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له: «والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاء وصيفاً، إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً[٥]لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة

---

(١) رنسيمان: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٦٤٣-٦٤٤

(٢) طقوش:سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص٤١٠

(٣) الجوكان: هو العصا المعوجة كالصولجان الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان. أبو شامة: حاشية الروضتين ج١ ص ١٠١، القلقشندي: الشيخ أبي العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا ج٥ ص٤٥٧

(٤) حمادة: محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية- دراسة ونصوص ص١٩٦

(٥) الجَمام: أي الراحة، وجم الفرس أي ترك ولم يركب، فعفا من تعبه وذهب إعياؤه. ابن منظور:=

الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروِّضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها وتتعوّد سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[١].

وتمتع نور الدين بشعبية بين أبناء أمته، امتدت لكي تتجاوز حدود دولته، من ذلك أنه حينما تقدم عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م على رأس قواته للمساعدة على فك حصار أفراد الحملة الصليبية الثانية، عن دمشق، شاهد الدمشقيون حرمته حتى تمنوه، ودعوا له دعاء متواصلاً، وخرج إليه عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء، ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا أصدقاءه الحقيقيين، أما فلاحو المنطقة، فكانت قلوبهم معه، لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي أرزاقهم من تخريب الصليبيين»[٢].

■ عمر بن عبد العزيز

قال ابن الأثير: «طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز[٣]، ملِكـًا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قد قصُر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه»[٤].

= إسحاق الشيباني، لسان العرب ج٢ ص٢١١

(١) ابن واصل: جمال الدين سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوبج١ ص٢٦٥

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٤١٠

(٣) عمر بن عبد العزيز: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص الخليفة الصالح والملك العادل، من الخلفاء الأمويين، ولد ونشأ بالمدينة عام ٦١هـ، استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام وولي الخلافة بعهد من سليمان عام ٩٩هـ، توفي عام ١٠١هـ. أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٢٠٦

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٦٣

ولما دخل دمشق لم ترق قطرة دم واحدة، حرصاً منه على عدم إراقة دماء المسلمين، وسانده السكان الذين انتظروا دخوله منذ سنوات[١].

وكانت داره متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب: فهو يبيتُ فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب[٢].

وكان نور الدين شجاعاً مثل أبيه عماد الدين زنكي الذي يضرب المثل بشجاعته، شارك والده في جميع المعارك التي خاضها خلال فترة حكمه (٥٢١-٥٤١هـ) ومن بعد توليه الحكم، أمضى نور الدين معظم أيام حياته على صهوة جواده، يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة[٣].

قال ابن الأثير: «أما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة، ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد، وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعتُ جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه، لا يتحرك ولا يتزلزل»[٤].

لقد كان نور الدين شهماً شجاعاً ذا همة عالية، وقصد صالح وديانة متينة[٥].وكان من أحسن الآراء ما كان يفعله مع جنوده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلَّف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيراً

---

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٤١٠

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص ١٩١ نقلًا عن البرق الشامي ص١٥٣-١٥٤

(٣) الصلابي: المصدر نفسه ص١٩٢-١٩٣

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٦٨-١٦٩

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٧٩

رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر، فكان الجنود يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الولد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب[١].

ومن القواعد الرئيسة التي سار عليها أنه يوجه قواه كلها نحو غاية واحدة في وقت واحد، فلا يشغل نفسه بجبهتين في الوقت نفسه، ويحرص على ألا يجمع على نفسه عدوين في آن واحد، فإذا كان في اشتباك مع مملكة بيت المقدس اجتهد في أن يكون على هدنة مع الدولة البيزنطية، وإذا اتجه نحو هذه لم يسر إلى الشمال إلا وقد اطمأن إلى سكون الجبهة جنوبي بلاده[٢].

وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة هو الذي جدَّد للملوك إتباع سنة العدل والإنصاف، وترْك المحرمات، من المأكل، والمشرب، والملبس، وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، هَمّ أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتْباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحْيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه[٣].

قال له الفقيه قطب الدين النيسابوري مرة: «بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم (أي ينصحه بعدم الاشتراك في القتال) وإن أُصبتُ والعياذ بالله في معركة، لا يبقى من المسلمين أحدإلا وأخذه السيف، وأخذت البلاد، فقال له: «ومَنْ محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد،

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص١٠٤

(٢) مؤنس: حسين، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ص٢٧٧

(٣) أبو شامة: الروضتين ج١ ص١٠٠ نقلًا عن ابن الأثير: الكامل

ذلك الله الذي لا إله إلا هو»[١]. وكان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، صحيح الاعتقاد، وكان قد قمع المناكر، وأهلها ورفع العلم والشرع، وليست الدنيا عنده بشيء رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[٢].

وعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه وتضرع، وقال: «يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيش فضول محمود في الوسط»؟ وكأنه يقول: «يارب إن نصرت المسلمين فدينكَ نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر»، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ محمود الكلب..حتى ينصر؟[٣]. وهو بذلك يرى أن الدعاء والتضرع لله عز وجل، من أهم الأسلحة في القتال، حتى لو كان المسلمون بكامل عدتهم وعتادهم.

وكان يكثر العطايا لجنوده، حتى أنه أعطى ذات مرة في يوم واحد ٢٠٠ ألف دينار، ناهيك عن الدواب والخيام والسلاح، وطلب من نوابه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عما أُخِذ منه، وكل من ذكر شيئا أعطوه، فحضر بعض الجند وادعى شيئًا كثيراً، علم بعض النوابكذبه، فأرسلوا إلى نور الدين ليتخذ قراراً في ذلك، واستأذنوه في تحليف الجند، لكنه رفض الفكرة، وقال: «لا تكدروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله، وكثيره، والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[٤].

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٦٨، ابن الأثير: الكامل ص١٧٥٧

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص٢١١، نقلًا عن الجهاد والتجديد

(٣) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٣٦٤

(٤) أبو شامة: المصدر نفسه ج١ ص٣٥١

وكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله إلا من مُلْك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصودة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله ولم يتعداه إلى غيره البتة[١].

قال ابن كثير: «كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[٢]، وكان عمر الملاّء رجلاً من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه، وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمد يده إليها، إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط»[٣].

وقال العماد الأصفهاني: «كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر»[٤].

وأقطع أمراء العرب إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجيج، وبنى بدمشق مارستاناً حسناً لم يُبْن في الشام قبله ولا بعده أيضاً[٥].

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٦٤

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص١٩٠ نقلًا عن ابن كثير: البداية والنهاية

(٣) الصلابي: المصدر نفسه ص١٩١ نقلًا عن سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج ٨ ص٣١٥

(٤) الصلابي: المصدر نفسه ص١٩٠

(٥) ابن كثير: البداية والنهايةج٨ ص٤٧٩

وعندما ولى نور الدين شحنة الموصل إلى كمشتكين، طلب منه ألا يخرج عن أمر الشيخ عمر الملاء، فكثر الذعار[١] في الموصل، فأخبر بذلك الشيخ عمر، وطلب منه أن يكتب إلى نور الدين أن يسمح للوالي باستعمال الشدة مِنْ صَلْب وقتل مع العصاة، فأرسل الشيخ إلى نور الدين يقول: «إن الذعار والمفسدين وقطع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية فمن يشهد له؟».فردَّ نور الدين على هذه الرسالة بقوله: « إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بما يصلحهم وأن مصلحتهم تجعل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى»[٢].

وكان نور الدين محمود يحب الجهاد، فقد قال العماد الأصفهاني: «حضرت عند نور الدين بدمشق والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها».وعندما سأله أصحابه وهو يغادر الموصل بعد ٢٠ يوماً من دخوله إياها عن سبب الإسراع والعودة قال: « يمنعني أنني هاهنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد»[٣].

وكان حريصاً على الشهادة، إذ قال ذات مرة: « طالما تعرضت للشهادة فلم أُدْرَكْ».

وشهرة عماد الدين زنكي بالجهاد زادت عليها سمعة ابنه نور الدين محمود

---

(١) الذعار: أو الدعار وهم المفسدون والخبثاء وقطاع الطرق، والواحد يسمى داعر. الذهبي: شمس الدين محمد، حاشية سير أعلام النبلاء ج١٩ ص١٢٩

(٢) حمادة: الوثائق ص١٩٧

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص١٩٧، نقلًا عن البنداري :البرق الشامي

بالجهاد والعدل والدين، وهذا ما جعل الأتابكة - رغم كثرة الأتابكيات - لا يعني لدى الناس إلا الأتابكية الزنكية(١).

بذل نور الدين كل ما أوتي من قوة وطاقات في سبيل إثارة الأمة، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الوطن العربي.

ويعتبر نور الدين من أعظم الذين أسهموا في إيجاد جيل مسلم جديد له روح جديدة، تضحي في سبيل الجهاد والتحرير، وتخترع وتبدع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرير، وهي بنفس الوقت روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف وتكره الفرقة وتمجها(٢).

وكان يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مُقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، ويحافظ على الجماعة وكان كثير الابتهال إلى الله عَزَّوَجَلَّ في أموره كلها(٣).

قال ابن الأثير: «حدثني صديق لنا بدمشق، كان رضيع الخاتون(٤) زوجة نور الدين، فقال:كان نور الدين يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة(٥).

---

(١) مصطفى: شاكر، موسوعة العالم الإسلامي ورجالهاج٢ص٧٤٢

(٢) زكار: الإعلام والتبيين ص٤٨-٤٩

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص١٩٨، نقلًا عن البنداري: البرق الشامي

(٤) الخاتون: كلمة فارسية تعني المرأة صاحبة الكلام في البيت والمتصرفة فيه، وقد اتصلت الكلمة في اللغتين التركية والكردية بهذا المعنى، وذكر د. محمد موسى هنداوي في كتابه معجم الألفاظ الفارسية أنه المرأة العظيمة. الأصفهاني: عماد الدين، حاشية الفتح القسي في الفتح القدسي ص٥٧٥

(٥) ابن الأثير: الباهر ص١٦٤

وكان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعـًا للآثار النبوية، محافظـًا على الصلوات في الجماعات[١] كثير التلاوة، صموتـًا وقوراً، وكان كثير الصيام، وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدِّم إشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده».

وقال العماد: «كلَّف نور الدين .. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى، وإغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج».

وأمر نور الدين أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محله، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان يرسم نفقته الخاص في كل شهر من جزية أهل الذمة، مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وجامكية[٢] طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر[٣] كما أنه أوقف وقفـًا على من يُعلِّم

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص٤٨٠

(٢) الجامكية: الراتب. المقرزي: تقي الدين أحمد بن علي، حاشية كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك، ج١ ق١ ص٥٢، وهي كلمة فارسية، جامة تعني اللباس، والجامكية في الاصطلاح: الجزية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر، ومن ناحية منحةا أبو شامة: حاشية الروضتين ج١ ص١١٠،ج٢ ص١٨٣

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٢٠٠، نقلًا عن أبو شامة: عيون الروضتين

الأيتام الخط والقرآن، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى من يُقرئ الأيتام وعلى المجاورين بالحرمين(١).

ومايُهدى إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز(٢) والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه، بل يعرض نظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليُحصِّل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة، ولم يلبس ما حرمه الله(٣).

وكان مراعياً لأصول الدين، ولا يُمكّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق، ومتى ما أقدم مقدم على ذلك أدَّبه بما يناسب بدعته، ويقول: «نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل»(٤)، وقال: «نحن شحن(٥)للشريعة نمضي أوامرها»(٦).

وقال مخاطباً أحد ولاته: « أُنظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميِّز بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة».

وكان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها»(٧). وقد أولى نور الدين العدل أهمية بالغة، وذات مرة قال إلى اثنين من كبار موظفيه:

---

(١) ابن كثير: البداية والنهايةج٨ ص٤٧٩

(٢) المهاميز: أو المهامز وهي عِصي، واحدتها مهمزة، وهي عصاً في رأْسهاحديدة. ابن منظور: لسان العرب ج ٩ ص١٣٣

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص١٩٠، نقلًا عن الأصفهاني: سنا البرق

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٧٣

(٥) شحن: أي الشرطة أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة

(٦) ابن الأثير: الباهر ص١٦٦

(٧) ابن الأثير: المصدر نفسه ص١٦٦

«والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين، فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك أمام الله، فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا تُرفع إلي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي».

وأيضاً كان نور الدين لا يأخذ بالظنة أو التهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد(١).

وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، بل أطلقها كلهافي بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والموصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم فيه، وكان المكس(٢) في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعين ديناراً، فأطلقها.

وكان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها(٣).

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه ص١٦٧

المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخلون البلد من التجار جمعه مكوس. أبو شامة: حاشية الروضتين ج١ ص ١٠٠، ومن معانيه

(٢)في اللغة «الضريبة التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية، والمكوس في مصطلح مؤرخي مصر الإسلامية: كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات أو لموظفي الدولة خارجاً عن الخراج الشرعي، وتسمى أيضاً المال الهلالي، وقد عرفت هذه= = الأموال في مصر باسم المكوس منذ الدولة الفاطمية. المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، حاشية السلوك ج١ ق٢ ص٢٦٧

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٦٦

ووصفه عماد الدين الأصفهاني بقوله: «الملك العادل أعف الملوك وأتقاهم، وأثقهم، وأعدلهم، وأعبدهم، وأزهدهم، وأجهدهم، وأطهرهم وأظهرهم، وأقواهم وأقدرهم، وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيباً، والقلوب بمهابته، ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته، وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة»[١].

وقال أيضاً:

يـا محـي العـدل الـذي في ظله	من عدله رعت الأسود مع المها
محمـودٌ المحمـودُ مِـن أيامـه	لبهائِها ضحِك الزمـان وقهقـها

وما اتصف به نور الدين محمود، من رجاحة العقل، تجاوزت سنوات عمره، أثار إعجاب أعدائه، لما اشتهر به من العدالة والإحسان والتقوى الصادقة، وفاق نور الدين والده، بما اشتهر به في الحكم على الرجال، واختيارهم، فاشتهر وزراؤه وقادته بالكفاية والإخلاص[٢].

وحين مات بمرض الخوانيق، اعتبره الناس شهيداً وافتقدوا فيه الأمل الذي رجوه بتحرير فلسطين، وبقي اسمه مقروناً في ذاكرة الناس عدة قرون بالعدل والإحسان، لأنه برع في استخدام الرعاية الدينية له ولمشروعه في توحيد القوى ضد المحتلين، ولِما أحرز من الانتصارات ضدهم في المعارك التي خاضها، وقد كان عهده الذي انتهى بموته، التمهيد لنجاح صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية وفي نصر حطين وتحرير القدس[٣].

---

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه ص١٧٤

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٩٢

(٣) مصطفى: موسوعة ج٢ ص٧٤١

وكان يهتم بالعلماء ويكثر لهم العطايا، ويقول عنهم: «هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا».

ومكَّن نور الدين العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي يتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتَّب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب .

وكان باراً بالشيوخ والزهاد لدرجة جعلت جميع المنابر تلهج باسمه، كفعل الإذاعات الدعائية في العصر الحديث، وقد أكثر من بناء المساجد والمدارس والمشفيات في الموصل وحلب ودمشق، وظهرت في عهده النماذج الفنية لهذه الأبنية[١].

وقال بروكلمان ممتدحاً نور الدين: «ولم ينفق موارد الدولة الغزيرة، التي تمت له بالإدارة البارعة التي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء، وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة فحسب، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد والزوايا، وخانات المسافرين والمستشفيات، ودور العلم، ولقد أنشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم، والبيمارستان «المستشفى» الذي يحمل اسمه[٢].

---

(١) مصطفى: المصدر نفسه ج٢ ص٧٤٢

(٢) بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٤٨

وقال أحد الأمراء: «كنتُ معه يوماً في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمنا ظلّنا، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، فقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهتُ ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها»(١).

تزوج نور الدين عام ٥٤١هـ، من عصمت الدين خاتون(٢) ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق وهذا الزواج لم تكن من ورائه جارية ولا سرية(٣).

وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في ٢٣ شوال، وما إن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبته ابنة معين الدين، وخلَّف نور الدين ابنة واحدة وولدين هما الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين عاما، جراء مرض ألمَّ به عام ٥٧٧هـ، وأحمد الذي ولد بحمص عام ٥٤٧هـ ثم توفي في دمشق طفلاً(٤).

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية في أحداث عام ٥٦٣هـ: «وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد تريد أن تحج من هناك، وهي الست عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر، فتلقاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأُكرمت غاية الإكرام»(٥).

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٦٥

(٢) عصمت الدين: تزوجها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢هـ بعد وفاة نور الدين محمود، وتوفيت عام ٥٨١هـ

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص١٦٧

(٤) الصلابي: المصدر نفسه ص١٦٧

(٥) الصلابي: المصدر نفسه ص١٦٨ نقلًا عن ابن كثير: البداية والنهاية

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، وذات ليلة نامت عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوَّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك للقيام، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً"[١].

ووصف المؤرخون زوجة نور الدين بأنها كانت: «من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة، متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم»[٢].

وفي الفصل التالي ستحدث تغيرات كبيرة سنرى إلى أين تقود نور الدين زنكي.

***

(١) الصلابي: المصدر نفسه ص١٦٨ نقلًا عن ابن كثير: البداية والنهاية

(٢) الصلابي: المصدر نفسه ص ١٦٨ نقلًا عن خليل: عماد الدين، نور الدين محمود الرجل والتجربة ص٤٩

الفصل الثاني

أمير حلب

عندما كان عماد الدين في أوج قوته، واعتزاه وكبريائه حدث ما لم يكن يتوقعه أكثر أعدائه، فقد كان يحاصر قلعة جعبر من أجل أخذها من صاحبها، وكان نائماً في خيمته ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١هـ/ ١٥سبتمبر ١١٤٦م، فدخل عليه أحد مماليكه[(١)] المكلفين بحراسته وقتله، ويدعى يرنقش[(٢)].

ولا شك أن هذا الحدث الجلل هز العالم الإسلامي وتأثرت وتغيرت الكثير من الأمور والأحوال بسببه، ولعل أكثر المتأثرين كان جيش عماد الدين زنكي الذي كان يحاصر قلعة جعبر.

فقد حدث اضطراب كبير في جيش عماد الدين ووقعت فوضى عارمة، ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل جراء هذه الفاجعة التي ألمت بأميرهم، ولم يكن هناك من كان قادراً على توحيد الجيش ولملمة الصف فتفرق الجيش وتشتت ونهبت أموال الأمير المغدور، وخزائنه الكثيرة[(٣)] بل الأدهى أنه بسبب الارتباك، تُركت جثة عماد الدين من دون أن يتم تكفينها[(٤)].

وفي الجانب الآخر كانت الأوضاع الداخلية لدولة عماد الدين أشد مأساوية وقتامة، لدرجة أن عقد غالبية الدولة كاد ينفرط، فكثر اللصوص وقطاع الطرق والدهماء، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في أطراف البلاد

---

(١) يرى ابن القلانسي أنه من أصل إفرنجي. ابن القلانسي: أبي يعلي، ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤

(٢) تناولتُ مقتل عماد الدين بشيء من التفصيل في كتاب: الزنكيون تاريخ دولة وقصة جهاد، وكتاب: عماد الدين زنكي..فاتح الرها

(٣) ابن القلانسي: الذيل ص٢٨٥

(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص٢٨٥، نقلت الجثة من مكانها، بعد أن هدأت الأوضاع

وفي كل مدينة، واستمر العبث في سائر الدولة.

أما الأوضاع الخارجية فحدِّث ولا حرج، إذ كانت أكثر خطورة، لأن أعداء عماد الدين كالصليبيين والبيزنطيين وحتى صليبيي أوروبا، وكذلك الأمراء المحليين منافسي عماد الدين، كلهم ينتظرون هذه الفرصة للانقضاض على دولته، وعلى رأسهم معين الدين أنر صاحب دمشق الذي أبى أن تضيع منه هذه الفرصة الذهبية، فقصد بعلبك، وحاصرها بالمجانيق، وبمختلف آلات الحرب، وخلال أيام قليلة من الحصار، وبعد أن قلّ الماء، استسلم والي بعلبك نجم الدين أيوب الذي كان يحكمها باسم عماد الدين. وهكذا ضاعت بعلبك من دولة عماد الدين ومن صاحب الدولة الجديد نور الدين[١] وكانت صدمة كبيرة له، لكنها بالتأكيد تعلّم الكثير من هذا الدرس.

كما أن الصليبي جوسلين الأمير السابق للرها أسرع بالهجوم على الرها في محاولة لاسترداد ما استولى عليه عماد الدين[٢]، لاعتقاده أن أبناءه لن يكونوا بقوة وجرأة وجسارة والدهم، لهذا تمكّن جوسلين من الهجوم على الرها والسيطرة عليها ولو لفترة قصيرة.

ونظراً لملازمة نور الدين لوالده في الكثير من المعارك والحروب، فقد كان إلى جانبه عند مقتله، بينما كان شقيقه الأكبر سيف الدين غازي في شهرزور التابعة للموصل[٣].

وهناك روايات كثيرة فيما حدث بعد مقتل عماد الدين، لكن ما يهمنا أن نور الدين شهد مصرع والده، وارتبك كالآخرين بل أكثر منهم جميعاً، وفي بادئ

---

(١) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص٢٨٨

(٢) الغامدي: مسفر، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ص٢٤٢

(٣) ابن الأثير: الباهر ص٨٥

الأمر لم يعرف ماذا يفعل، لكنه تماسك بعد ذلك، وأخذ يستوعب ما حدث.

ويروي ابن القلانسي أن سيف الدين غازي الذي كان قريباً من الموصل، اتجه إليها فوراً وامتلكها[١]. فقد كان للوزير جمال الدين والحاجب صلاح الدين الياغيساني، دور في تسلم ابني عماد الدين حكم الموصل وحلب، والأخير كان له دور بارز مع بهاء الدين الشهرزوري في ترشيح والد نور الدين، عماد الدين ليكون والياً على الموصل قبل سنوات. فقد نحى جمال الدين والياغسياني خلافاتهما جانباً، واتفقا على أخذ البيعة من العسكر لنور الدين في حكم حلب بعد مقتل عماد الدين، ومخادعة السلطان ألب أرسلان بعدما قال جمال الدين للياغيسياني: « أن ينزل ما بيننا وراء ظهورنا، وندبر أموراً يبقى الملك في يد صاحبنا ونعِمر به أجزاء العساكر إلينا، ولا ننقله إلى الأعاجم، فنهلك بعد أن نذوق الذل والهوان»[٢]. ويقصد بذلك أن المُلْك قد ينتقل إلى الصليبيين إن لم يتحركا بأقصى سرعة.

ويروي ابن طي أن أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي، الذي كان إلى جانب نور الدين، هو صاحب الاقتراح في الاتجاه نحو حلب وليس الموصل، وما ينقله ابن طي عن شيركوه يؤكد معرفة شيركوه ببواطن الأمور، حيث قال له: « أردت أن أصيرك إلى حلب، وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام»[٣].

ثم أخذ شيركوه يوضح لنور الدين سبب هذا الاختيار بقوله «وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك (أي دولة أبيك والشام) لأن ملك الشام يحصل

(١) أبو شامة: الروضتين، ابن الزيبق ج٢ ص١٦٧
(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج١٣ ص٥٧٨-٥٨٠
(٣) أبو شامة: عيون الروضتين، ابن الزيبق ج٢ ص١٦٨

بحلب، ومن ملك حلب، استظهر على بلاد الشرق»[١] (أي الموصل).

ونظراً لما يتمتع به شيركوه من نظرة ثاقبة وبُعد نظر، فقد كانت عملية الاختيار صائبة إلى حد بعيد، رغم المخاطر الجمة، إلا أنشيركوه شرح لنور الدين ما سوف يكسبه من اختيار حلب، عندما أكد له أن «مُلك الشام يحصل بحلب، ومن مَلك حلب استظهر على بلاد الشرق»[٢]. وهذا ما أكده ابن الأثير عندا قال أن المسير إلى حلب تم بمشورة من أسد الدين[٣].

وهذا الأمر جعل نور الدين يتماسك، ويكون أكثر قوة وصلابة لذا أخذ نور الدين خاتم والده من يده.وأعلن النفير والتوجه نحو حلب.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل كان نور الدين يرغب فعلاً، بحلب دون الموصل، وهما المدينتان الأكبر اللتان تتألف منهما دولة عماد الدين زنكي، والجواب بالتأكيد النفي، خصوصاً أن حلب قريبة من خط النار أي من الصليبيين، وتحديداً في القدس وطرابلس وبالتالي فإن الابتعاد عنهم مكسب كبير.

وهناك سبب آخر لاختيار نور الدين حلب بعد مقتل أبيه، وهو ما رواه ابن طي بأن شقيقه الأكبر سيف الدين غازي كان متواجداً قريباً من الموصل، لذا كان من الصعب عليه المسير إلى هناك، لأن ذلك يعني بكل تأكيد إعلان الحرب على أخيه.

كما أن نور الدين الذي تعرض لصدمة كبيرة عند مشاهدته أبيه وهو مضرجاً بالدماء، كان من الصعب عليه اتخاذ قرار خطير مثل هذا، ونقصد به التوجه نحو حلب وليس الموصل، وبالتالي عندما أشار عليه شيركوه بتلك

---

(١) أبو شامة: المصدر نفسه ج٢ ص١٦٨-١٦٩

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه م١ ج١ ص١٩١

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه م١ ج١ ص١٩٢

المشورة، اقتنع بها.

وشيركوه الذي كان من أكابر رجال والده عماد الدين، ومن كبار قادته، وكان يقاتل إلى جانبه عند قلعة جعبر، انتقل بعد ذلك في خدمة نور الدين، فأصبح يده اليمنى وقائد جيشه.

وبمعنى آخر هناك رجال عدة، كان لكل منهم دور في حسم الصراع لصالح ابني زنكي دون غيرهما من المتنافسين معهم على الحكم، وفي اختيار دولة الحكم في الموصل وحلب، بعدما قرروا سرعة التحرك نحو المدينتين، مثل أسد الدين شيركوه، وجمال الدين الأصفهاني، وصلاح الدين الياغيسياني وكذلك مجد الدين بن الداية وسيف الدين سوار، كلٌّ حسب موقعه.

وهؤلاء على وجه التحديد لعبوا دوراً مهماً في إرساء دعائم دولة نور الدين، بعدما أنفقوا الكثير من الأموال على الدهماء وضعاف النفوس الذين يتكسبون من هذه الأحداث.

بعد مقتل عماد الدين، قام نور الدين بجمع عساكره من جديد، وتنظيم جيشه، الذي تمكن من السيطرة على الدولة، ومن ثم بدأت تعود الأمور إلى نصابها[١]. وسار ببعض العساكر إلى حلب، فملكها هي وتوابعها مثل الرها وحران وسروج وحمص وحماة في ربيع الأول ٥٤١هـ/ ١١٤٦م.

وبعدما توجهت كل مجموعة من السياسيين والعسكر من أصدقاء سيف الدين ونور الدين، إلى المكان الذي تريده،أصبحت الموصل لسيف الدين غازي، وحلب لنور الدين، وبذلك خلا الجو لكليهما، ولم يعد هناك من ينافسهم على ملك أبيهما عماد الدين، وأيضاً لم تحدث أي مشكلة بين

---

(١) ابن القلانسي: الذيل ص٢٨٥

الأخوين في توزيع ميراثه وملكه. كما وافق السلطان السلجوقي على ما آلت إليه الأمور في الموصل[١].وكانت القسمة بينهما عادلة، فسيف الدين ورث مع القسم الشرقي للمملكة، أي الموصل والجزيرة، مشاكلها المحلية والأسيوية الخالصة، مثل:تأمينها من مطامع السلطان السلجوقي والخليفة العباسي، ومؤامرات بلاطيهما، ثم حماية حدودها الشرقية من غارات أصحاب الأمر في فارس، وثغورها الشمالية من عدوان أتراك آسيا الصغرى وآل دانشمند[٢] والبيزنطيين.

بينما ورث نور الدين محمود صاحب القسم الغربي، أي حلب، الجهاد مع الصليبيين. ورغم التحديات الجمة التي كانت تواجه الاثنين إلا أن العبء الأكبر كان بلا شك يقع على نور الدين، على اعتبار أن الصليبيين هم غرباء على المنطقة ومحتلون يجب طردهم مهما طال الزمن، وهو ما يعني أن هذه المنطقة سوف تظل مشتعلة إلى أن ينتهي الاحتلال الصليبي. ولكن يبقى وضع كل منطقة لها خصوصيتها، بمعنى أن الموصل بعيدة نوعـاً ما عن خط المواجهة، وبالتالي فهي أكثر استقراراً، والأعداء الذين يحيطون بها خطرهم أقل، بينما حلب ستكون على مر الأعوام المقبلة مشتعلة، وبؤرة الصراع، وهو ما يعني عدم استقرارها، إلا إذا كان لديها شخصية قيادية مثل نور الدين، فإن كل الأوضاع السالفة الذكر، سوف تصب في صالحها، كما سنرى لاحقـاً.

عمومـاً كان ابنا عماد الدين مؤهلان لما وجهته الأقدار نحوهما، فكان

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٤٧

(٢) الدانشمند: إحدى الإمارات التركية التي قامت في الأناضول إلى جانب سلطنة سلاجقة الروم. طقوش:حاشية تاريخ الزنكيين ص٢٩٤، وتضم أملاك الدانشمند: سيواس، نيكسار، كوفات، عثمانجق، البستان، جانيك، كنغري، قسطموني، جوروم تم وملطية. مصطفى: الموسوعة ج٢ ص ٧٦٨

سيف الدين غازي صاحب سياسة وأناة،ونور الدين جيَّاش القلب والإيمان، يرى نفسه مجاهداً، لم يخلقه الله إلا لجمع كلمة المسلمين[١].

■ ماذا بعد الاستقرار

بعد أن استقر كل من نور الدين وسيف الدين غازي في ملكهما الجديد، كان لابد أن نطرح السؤال التالي: ماذا بعد هذا الاستقرار؟، وكيف لهما أن يحلا مشاكلهما الجديدة التي نشأت نتيجة للوضع الجديد؟. خصوصاً أنّ كل طرف كان يخشى غدر وخيانة الآخر، وبالتالي قبل التفكير في المستقبل وفي جيرانهما، عليهما أن يفكرا في علاقتهما الجديدة، وحل مشاكلهما قبل أي شيء آخر.

وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء فسوف نرى قصة الأمين والمأمون ابني الخليفة العباسي هارون الرشيد تكاد تتكرر من جديد، ولكن هذه المرة في شخصية سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، وإن اختلفت أسباب القصة ومسبباتها، والتي أدت في نهاية الأمر إلى نشوب قتال بينهما، كان من نتيجتها مقتل الأمين واعتلاء المأمون العرش.

صحيح أن الصراع بين ابني هارون كان على الخلافة، وابني زنكي على مملكة صغيرة، لكنه يبقى صراع على الملك والسلطة والسطوة، وهو ما تعشقه النفس البشرية وتميل إليه، فضلاً عن وجود الحُساد والمنافقين وشياطين الإنس حولهم الذين يزينون لهم الأمر ويجعلون الحق باطلاً، والباطل حقاً. لكن الذي اختلف في القصتين أن ابني زنكي ليس كابني هارون، وأخلاقهما وبيئتهما وأوضاعهما كانت مختلفة.

---

(١) مؤنس: نور الدين محمود ص٢٠١

وإذا تتبعنا قصة سيف الدين ونور الدين بعد مقتل الأب واتجاه سيف الدين إلى الموصل، ونور الدين إلى حلب، نجد أن المعطيات كانت مختلفة، وهي من دون شك تختلف حتى في عصرهما، فرغم الخوف والخشية من بعضهما البعض إلا أن حكمة سيف الدين غازي، وسمو أخلاق نور الدين جعلهما يتفقان على نقاط كثيرة. فقد جاءت المبادرة أولاً من الأخ الأكبر سيف الدين الذي أراد أن يضع النقاط على الحروف، ويحدد نوعية العلاقة مع أخيه.

لهذا أراد سيف الدين ونور الدين الإجابة عن ذلك السؤال، وهو ماذا بعد استقرارهما؟ فقد قرر سيف الدين غازي أن ينسق مع نور الدين لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب الملك، فطلب من أخيه الحضور إليه. إلا أن صاحب حلب تأخر عليه معللاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين، وهو ربما فعل ذلك، لأن الشك ما زال يساوره تجاه أخيه، وهذا أمر طبيعي، ولا يمكن أن نحمّل الأمر أكثر مما يحتمل، بمعنى لا يمكن القول أنه كان يضمر الشر لأخيه، كما لا يمكن القول أن سيف الدين كان يريد الغدر بشقيقه الأصغر، كما قال صاحب مرآة الزمان: "أنه راسل نور الدين للإيقاع به"[(١)] على اعتبار أن الغدر لا يتناسب مع شخصية سيف الدين غازي، كما أن حرصه على مراسلة أخيه بشكل مستمر يؤكد أن نيته كانت سليمة، ولم يكن يضمر الشر لأخيه، ومع استمرار سيف الدين في المحاولة، فقد ظل يراسل شقيقه ويستميله، وفي نهاية الأمر تم الاتفاق على عقد اجتماع بينهما مع أخذ الضمانات الضرورية لكل منهما، لأنهما كانا يخشيان الغدر من بعضهما. ومجرد الاتفاق على عقد مثل هذا الاجتماع، فهو يعني على أقل تقدير أن كل طرف جاء ليسمع من الآخر، ويقدم الاقتراحات، وبالتالي الاتفاق على المبادئ الأساسية بينهما، وترك أي

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج١٣ ص٥٨٠

خلافات أخرى جانباً، والأهم من كل ذلك يعني أنهما يتمتعان بأخلاق رفيعة، سوف تساعدهما في حل مشاكلهما.

ويبدو أنهما اتفقا خلال المراسلة على نقطتين، أولهما: أن يكون الاجتماع ليلاً[١] والثانية: أن يجلب كل واحد منهما معه خمسمائة فارس، ومن سياق الأحداث الماضية، نستنتج أن نور الدين هو من وضع هذين الشرطين، لأنه هو من كان يخشى شقيقه، وخصوصاً شرط الاجتماع ليلاً، كي يضمن ألا يكون بينهما قتال، وهذا يؤكد أيضاً أن نور الدين أيضاً لم يكن يضمر الشر لأخيه، لكن ربما كان يخشى غدره. ولو كان نور الدين يضمر الشر لفعل ذلك بعد مقتل أبيه مباشرة، وهي الرواية التي ذكرها ابن عساكر عندا راسل نور الدين جنوده الذين أرسلهم إلى الموصل وقال لهم» إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل، فهي له، وأنتم في خدمته، وإن تأخر، فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم»[٢]. فلو كان يريد الغدر بأخيه لكان له رأي آخر، بل إنه طلب من جنوده أن يكونوا في خدمة أخيه.

وعندما تم اللقاء بينهما في الخابور، ومن شدة الظلام لم يعرف نور الدين أخاه، وكان نور الدين أخذ معه العدد الذي تم الاتفاق عليه من الفرسان، لكن المفاجأة أن سيف الدين لم يأخذ معه سوى خمسة فوارس، وعندما رأى نور الدين هذا العدد القليل مع أخيه، حينها تأكد له حسن نيته، فاعتذر وأظهر له الطاعة والاحترام، واقتربا وتعانقا وبكيا، وقال له سيف الدين: «لِم امتنعت من المجيء إلي؟ كنتَ تخافني على نفسك! والله لم يخطر ببالي ما تكره، فلمن أريدُ البلاد ومع مَن أعيش وبمن أعتضد إذا فعلتُ السوء مع أخي وأحبُّ الناس

(١) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه ج١٣ ص٥٨٠

(٢) أبو شامة: عيون الروضتين، ابن الزبيق، ج٢ ص ١٦٨، نقلًا عن ابن عساكر: تاريخ دمشق

إلي؟». فاطمأن نور الدين وسكن روعه، ووضع نفسه تحت تصرف أخيه، إلا أن سيف الدين قال له: «لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن تَعلَم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه»[١].

وهكذا اطمأن كل منهما للآخر، ولم يعد هناك أي خوف من بعضهما البعض، ولم تذكر كتب التاريخ عن أي حادث وقع بين الأخوين على الإطلاق. لهذا نشأت علاقة وثيقة بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب، بفعل الروابط الأسرية ولاشتراك أبناء هذه العائلة في تحقيق هدف واحد هو الجهاد ضد الصليبيين، وهو ما سوف يتحقق على أرض الواقع بعدما تسير الأحداث في هذا الاتجاه.

ومثل هذا الاتفاق الذي حدث بين الأخوين يعتبر نادراً في ذلك العصر، وهو ما كان يخالف التوقعات، لاسيما من الصليبيين والبيزنطيين الذين كانوا على أهبة الصراع للانقضاض عليهما، إلا أنهما خيبا آمالهم جميعـًا. وبذلك سارت قصة سيف الدين ونور الدين في اتجاه آخر غير اتجاه قصة الأمين والمأمون. وفي خط سير مخالف لعصرهما وبيئتهما.

ومع كل هذا، ونتيجة لمقتل عماد الدين صاحب القوة والسطوة، كانت دولته مهددة بالضياع، حتى بعد اتفاق الأخوين، لأن الجميع اعتقد أن الأبناء لن يكونوا مثل أبيهم في الشجاعة والصرامة واتخاذ القرار!.فقد كانت المشاكل كلها بمثابة صداع يؤرق الزنكيين، إذ تكالبت عليهم كلها في وقت واحد، ففي الجنوب معين الدين أنر[٢]، صاحب السلطة الفعلية في دمشق كان يتطلع إلى

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٨٨

(٢) معين الدين أنر: بدمشق في ربيع الآخر ٥٤٤هـ/ أغسطس ١١٤٩م. وهو نائب أبق صاحب دمشق، كان معين الدين الحاكم والآمر إليه وكان أبق صورة أمير فقط. ابن العمري: شهاب الدين ابن الفضل، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تاريخ الحروب الصليبية والدول المتأخرة ص٣٠

السيطرة على بعلبك (وسيطر عليها بالفعل كما ذكرنا سالفـًا) وحمص وحماة، وفي الشرق حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرْض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، كما استرد الأراتقة المدن التي سبق أن ضمها عماد الدين من ديار بكر، وفي شمال الشام مضى أمير أنطاكية ريموند بواتييه، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين[١].

أما الرها التي فتحها عماد الدين وأخذها من صاحبها جوسلين الثاني، فهي صداع آخر سنروي تفاصيلها في الصفحات التالية.

***

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٥٢-٢٥٣

الفصل الثالث

الرها من جديد

لا يمكن أن تغيب الرها عن الأحداث المتلاحقة، لاسيما بعد مقتل عماد الدين، وانقسام دولته بين ولديه سيف الدين غازي، ونور الدين.

فالرها وما تمثله بالنسبة للمسيحيين، وما حدث من هزة عنيفة بعدما أخذها عماد الدين من جوسلين، كان لابد أن تكون على مسرح الأحداث، خصوصاً بعد التغييرات الكبيرة التي وقعت.

فقد كان أمير الرها السابق جوسلين الثاني يتحين الفرصة لاسترجاع إمارته. وأعدّ الخطة اللازمة لذلك واتفق مع بعض الأرمن هناك على هذا الأمر[١] ووجد المساندة من بلدوين حاكم مرعش وكيسوم، بينما رفض ريموند بواتييه حاكم أنطاكية تقديم المساعدة له[٢]، إلا أن هذه المحاولة التي حدثت ربيع الآخر ٥٤١هـ/ سبتمبر ١١٤٦م[٣] باءت في الفشل.

وقد علمنا أن نور الدين اتجه مع جنوده وحراسه إلى حلب، وشقيقه وما لديه من عسكر توجه إلى الموصل،لهذا لم يبق إلا عدد قليل من أتباع نور الدين لمواصلة الحراسة في الرها، وعندما أدرك سكانها هذه الحقيقة أرسلوا سراً رسلاً إلى جوسلين»[٤]، وتوسلوا إلى الكونت بجدية أن يجمع قواته العسكرية، ويشرع إلى المدينة التي سيسلمها السكان له حالاً دونما مخاطر أو عراقيل»[٥]. «جمع

(١) الغامدي: الجهاد ص٢٤٥

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٥٣، نقلًا عن الصوري:وليم، تاريخ الحروب الصليبية ص٧٥٢-٧٥٣

(٣) الغامدي: الجهاد ص٢٤٥

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٥٣

(٥) يرى المؤرخون اللاتين ومن أخذ عنهم أن سكان الرها الأرمن هم الذين راسلوا جوسلين، فيما يرى المؤرخون المسلمون أن جوسلين هو الذي راسلهم . الغامدي: الجهاد ص٢٤٥

جوسلين جميع جنود تلك المنطقة من المشاة والفرسان على حد سواء، ثم عبر النهر بسرعة ..وسيطر جوسلين أياماً عدة على المدينة، لكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على القلعة التي كانت محصنة بعناية ومزودة بالمؤن والأسلحة والجند بشكل جيد»[١]. وأثبت نور الدين أنه قادر على الدفاع عن مدينته، فقد خرج من حلب في جمادي الآخرة على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار مدينة الرها، فلم يكن أمام جوسلين سوى الهرب، ومن ثم استرد نور الدين البلدة[٢].

ويقول وليم الصوري عن ذلك: «حالما سمع نور الدين أن السكان سلَّموا الرها إلى جوسلين، جند الجنود من سائر أنحاء الشرق، وأمر صاحب النفير أن يطلب من سكان المدن المجاورة الاجتماع في مكان واحد، وظهر فجأة أمام الرها ونشر فيالقه في دائرة حولها، وبدأت عمليات الحصار»[٣].

وعندما وصلت كل تلك الأخبار إلى الموصل، أرسل سيف الدين غازي جيشاً لمساندة أخيه، وللدفاع عن المدينة التي حررها أباهما، وهو ما يؤكد أن الشقيقين اتفقا على الوقوف جنباً إلى جنب في السراء والضراء.ويؤكد أيضاً صدق نوايا سيف الدين تجاه أخيه، وبذلك لم يتركه في هذه المحنة.

صحيح أن جيش الموصل رجع قبل وصوله إلى الرها عندما علم باستعادة نور الدين المدينة، وأن سيف الدين غازي أقر أخاه نور الدين في عمله، لكن هذا يعني بمثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجة الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، وقد أدركوا حقيقة سوف تكشفها لهم الأيام مستقبلاً،وهي أن نور

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٥٣

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٦٧٧

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٥٣ - ٧٥٤

الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه عماد الدين زنكي، واجتماع الأخوين قبل ذلك، أكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن سيف الدين غازي ونور الدين محمود اتفاقا على التعاون ضد الطامعين بملك أبيهما وملكهما[١]، وأنهما لن يقفا مكتوفي الأيدي أبداً تجاه أي قضية تحدث في الشام.

وهذا الحدث يؤكد مدى الحكمة التي يتمتع بها سيف الدين، إذ أنه أقر أخاه نور الدين على الرها، بعد أن قام بمحاربة جوسلين الثاني، رغم أن الرها كانت تقع ضمن نفوذ سيف الدين، على اعتبار أنه امتلك الموصل، وما يتبعها من أملاك أبيه شرقي الفرات.

كما أن سيف الدين لم يتقاعس عن إنقاذ الرها، عندما علم باستيلاء جوسلين الثاني عليها، إلا أن عساكر نور الدين وصلت إليها قبل عساكره، ومن ثم استولى عليها نور الدين، وعندها تركها له ولم يعارضه[٢]. لكن يمكن تفسير تحرك نور الدين ووضع يده على الرها ليس طمعاً في السيطرة على المدينة، وإنما لإنقاذها من براثن الصليبيين، وخوفاً على أن تميل كفة الصراع لصالح الإمارات الصليبية. وهو ما أقره أخوه عليه، ومن ثم تركها لنور الدين. بدليل أن الكثير من المؤرخين يؤكدون أن نور الدين لم ينتظر طويلاً بعد سماعه بما قام به جوسلين ومحاولته استعادة المدينة، بل إنه أسرع في المسير إلى المدينة لدرجة أن الدواب وقفت في الطرقات من شدة السير[٣]، وهذا يؤكد عزم الملك العادل وقوة بأسه في المرحلة المبكرة من حكمه، وحرصه على استعادة الرها، حتى لا يقال أن المدينة، التي جَدَّ أبوه في تحريرها بعد نحو خمسين عاماً من

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٣٧-٤٣٨

(٢) عاشور: سعيد، حاشية الحركة الصليبية ج١ ص٤٨٦

(٣) أبو شامة: الروضتين ج١ ص١٩٥

الاحتلال الصليبي، ضاعت من المسلمين بمجرد استلام نور الدين الحكم.

وهناك اعتبارات عدة دفعت نور الدين إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني لاسترداد الرها:

- أراد إنقاذ الانجاز الكبير الذي حققه والده عماد الدين زنكي بإخضاع أولى الإمارات الصليبية، وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم استراتيجية كبرى.
- أراد أن يوقف أي توسعات صليبية في المنطقة الممتدة من شمال العراق.
- عودة السيادة الصليبية للرها كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي[١].

■ **ولعل من أهم أسباب انتصار المسلمين:**

أن أهالي الرها كانوا لا يملكون إلا بعض القوات المحرومة من التمويل منذ سنتين، إضافة إلى أن جوسلين ورفاقه القليلين لم يُحضروا معهم أي مهندسين، ولا آلات للحصار، ثم إنهم انصرفوا بتهور إلى السلب والنهب في أرجاء المدينة، ولم يركزوا جهدهم منذ البداية في الاستيلاء على القلعة التي كانت محصنة بعناية ومجهزة تجهيزاً جيداً بالمؤن والأسلحة.

وكان يمكن أن ترجح كفة المسيحيين ولو لفترة قصيرة، لو أن بقية الإمارات الصليبية سارعت ودعمت فرحتها وقتذاك بتقديم المساعدة الجدية للرها، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، ولم يصل للرها أي تعزيزات[٢].

---

(١) عوض: محمد مؤنس، في الصراع الإسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية ص١٦٦

(٢) الجنزوري: علية، إمارة الرها الصليبية ص٣٢٢-٣٢٣

وكررت الإمارات الصليبية ما فعلته في المرة السابقة، وتركت الرها لمصيرها، ولم تقدم لها أي لها نجدة سريعة، حتى أنطاكية الشديدة القرب جداً من إمارة الرها رفض أميرها تقديم أي مساعدة![1].

ولاشك أن استيلاء المسلمين على الرها للمرة الثانية يعتبر أكثر إيلاماً بالنسبة للمسيحيين من فتحها الأول، فقد تأكد بهذا الفتح استيلاء المسلمين عليها، فضلاً عما حلّ بأهلها جميعاً تلك المرة من تنكيل شديد بعكس المرة السابقة التي كانت أخف وطأة[2].

وهنا نتساءل: ماذا سيفعل الغرب بعد تلك الأحداث وشعورهم بالغضب إثر فشلهم في استعادة الرها؟ هذا ما سوف نعرفه في الباب الثاني.

***

(١) الجنزوري: المصدر نفسه ص٣٢٦

(٢) الجنزوري: المصدر نفسه ص٣٢٦

الباب الثانى

الحملة الصليبية الثانية

- الفصل الأول: الجيوش الصليبية تتجه نحو حلب
- الفصل الثاني: تغيير المسار إلى دمشق
- الفصل الثالث: فشل الحملة

الفصل الأول

الجيوش الصليبية تتجه نحو حلب

تعرض الصليبيون في الرها إلى فادحة، أشد من هزيمتهم الأولى أيام فتحها الشهيد عماد الدين زنكي عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٤م، وكان من آثار هذه الهزيمة أن غضب الأوروبيون لضياع الرهاوفشل محاولة الاستيلاء عليها، وثار شعور الغرب الأوروبي ونادوا بضرورة تكاتف الجهود الصليبية في الشرق والغرب للقضاء على المسلمين وتأديبهم، وبعث الروح المعنوية عند الصليبيين[(١)] ودلّ سير هذه الأحداث على أن أعداء عماد الدين زنكي لم يجنوا من وفاته إلا شيئًا ضئيلاً، يضاف إلى ذلك أن أبناءه كانوا من الحكمة ما يكفي لمنع وقوع الشجار بينهم[(٢)].

وقد شرح مؤرخ بيت المقدس وليم الصوري ما قامت به الكنيسة للثأر من تلك الهزيمة التي تعرض لها الفرنجة، واستعادة نور الدين الرها بقوله: «انتشر الرسل في كل مكان يحملون تلك الأخبار، وزاروا البلدان التي عمها التراخي واللامبالاة لفترات طويلة، ونشدوا مساعدتها وحرَّضوها على الانتقام لهذه الهزائم الكبرى»[(٣)].

وتنقل برنارد - الذي ترأس البعثة إلى الغرب- بحماسة وغيرة، دون كلل أو ملل، ودعا الناس وحرضهم وحرك عواطفهم، وأثار شجونهم، فربح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير، وتجاوب الجميع مع دعوته، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو بيت المقدس، وعلَّقوا على عواتقهم شارة

---

(١) عاشور: فايز حماد، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ص٢١٠- ٢١١

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٣٨٨

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص ٧٥٨

الصليب، وأعدوا العدة للسفر[١]. وهكذا اتفق الغرب على إرسال حملة صليبية جديدة إلى المشرق لاسترداد مدينة الرها من نور الدين محمود.

وأخذت الأخبار تتوارد من القسطنطينية وآسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً بقيادة الإمبراطور الألماني كونراد الثالث[٢] وملك فرنسا لويس السابع[٣] تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه، واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، واستردا نور الدين بعدا سيطر عليها جوسلين لفترة قصيرة، وكذلك احتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين.

وقد عبرت تلك الجيوش مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، ومع ذلك يمكن القول أن كونراد لم يكن باستطاعته ضبط هذا الجيش، فقد كان في الخمسين من عمره، معتل الصحة مضطرب المزاج، وشرع في أن يتنازل عن قدر كبير من سلطته لوريثه الشرعي الذي كان يرافقه في الحملة ابن أخيه فردريك[٤].

ويدل وجود أكبر ملوك أوروبا على رأس هذه الحملة، على قوة الصدمة التي تعرضت لها أوروبا إثر سقوط الرها بيد المسلمين، وعلى قوة التأثير التي قام بها دعاة هذه الحملة برنارد والبابا يوجينيوس[٥].

---

(١) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٥٨-٧٥٩

(٢) كونراد الثالث: توفي عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م. ابن العمري: المسالك ص٢٩

(٣) يعود السبب في موافقة هذين الملكين على المشاركة في الحرب الصليبية الثانية إلى أن البابا يوجينيوس الثالث كان على علاقة طيبة معهما، فالأول قام يوجينيوس بإرسال مندوب بابوي لتتويجه عندما تولى العرش، والثاني كانت بينه وبين البابا صداقة ومودة، ولم يتمكن البابا من كسب موافقة ملوك أوروبا الآخرين خصوصاً أنه لم يدخل روما منذ تولى البابوية في فبراير ١١٤٥م، وبالتالي لم تكن البابوية في وضع يهيئ لها توجيه الحركة الصليبية، مثلما سبق للبابا إيربان الثاني من قبل. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ص٤٠٩-٤١٦

(٤) رنسيمان: المصدر نفسه ج٢ ق١ ص٤١٨

(٥) الغامدي: الجهاد ص٢٤٨ نقلًا عن رنسيمان: المصدر نفسه ج٢ ص٤٠٩-٤١٦

وأخذت الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل.

تعرض الجيش الألماني الذي كان يتقدم الجيش الفرنسي أياماً عدة، لخسائر فادحة أمام أمير سلاجقة الروم السلطان مسعود في آسيا في منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقية وهو الموقع نفسه، الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً[١].

فقد داهم جيش السلطان مسعود الجيش الألماني الذي استبد بهم التعب والظمأ، فاختلت قيادتهم، وتعرض أفراده لأفدح الخسائر، وقتل في المعركة تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه، وحاول عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه فر من المعركة عند المساء مع من تبقى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[٢]. واعتبر رنسيمان ما حدث للألمان بأنه: «مذبحة لا معركة»[٣].

لنترك هنا وليم الصوري يصف ما حدث للجيش الألماني، إذ يقول: «كان جيش الإمبراطور الألماني كونراد يعاني من الجوع، ومن جهله بالمنطقة، ومن عزلته المزدادة، ومن مصاعب الطرق، ومن قلة الخيول ومن حمل العتاد، وأثناء ذلك كان أمراء التركمان- أي السلاجقة - وقادتهم من مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين، لهذا حشدوا جميع قواتهم، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي، وقد أوقع هذا الهجوم غير المتوقع الفرق الألمانية في فوضى كاملة، ذلك أنه لم يسبق أن رأوا أي شيء

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٠

(٢) الصلابي: المصدر نفسه ص٤٤٠

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ح٢ ق١ ص٤٣١

من هذا القبيل، فلقد كمنت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع أو عطش، وفي عتادهم الخفيف، المؤلف من قسوس ونشاب، وأحاطوا بالمعسكر وأصواتهم تتعالى، وكما جرت العادة انقضوا بعنف على عساكرنا الذين أعاقتهم دروعهم الثقيلة»[١].

وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال، ولم تتوافر لديه الفرصة للانتقام أو الاشتباك بالعدو في قتال قريب، كما أنه لم يستطع إمساك العدو وحصره، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد، تفرق التركمان، وبددوا جهودهم، وركضوا في مختلف الاتجاهات، وعندما كان النصارى يعودون إلى مخيمهم، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم، ويقومون ثانية بتطويق عسكرنا وقتالهم بضراوة أشد، وكأنما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان[٢].

ثم تحدث الصوري عن شجاعة أمراء الفرنجة التي انهارت أمام بسالة وقوة السلاجقة بقوله: « نجد أن شجاعة هؤلاء الأمراء الكبار من النصارى، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم لا تقهر وأعدادهم لا تضاهى، قد انهاروا جميعاً تحت ضربات لا يمكن وصفها بأنها كانت أكثر من لينة حربياً، ولم يبق مرئياً من شجاعتهم السابقة شيء، وبقي من أعدادهم قوات يسيرة فقط، لقد هلك بعضهم بفعل الجوع، وقطع آخرون بالسيوف، وسقط عدد كبير أسرى بيد العدو، وعلى كل حال نجا الإمبراطور مع عدد من نبلائه، وتمكن بعد أيام عدة ومصاعب جمة، من الوصول إلى أحواز مدينة نيقية مع الباقين من أتباعه»[٣].

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٦٤-٧٦٥

(٢) الصوري: المصدر نفسه ج ٢ ص٧٦٤

(٣) الصوري: المصدر نفسه ج ٢ ص٧٦٥

فيما عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته ورغم الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي، فقد فاجأه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية، وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية، استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر، عندها تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام، حيث انسحب التركمان، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية، إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة[١]. وأكد رنسيمان أن الظلام وحده أنقذ حياة الملك، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة[٢].

واعتبر الصوري ما حدث للفرنجة هنا بأنه: «زالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة، وتلطخت سمعتهم من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى، فشجاعتهم التي كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم، قد سُحقت ومُرغت بالرغام، وغدت منذ ذلك اليوم أضحوكة ووسيلة هزء في أعين الشعوب التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل». وقد نجا الملك بفضل حظه وليس بسبب جهوده، نجا من وسط المخاطر والفوضى، ففي بهيم الليل تمكن من تسلق الشعاب الجبلية دون دليل يرشده، وكان برفقته عدد صغير من حاشيته، وتمكن من الوصول إلى

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤١-٤٤٢

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ح٢ ق١ ص٤٣٨

المعسكر الذي كان قد نصب بعيداً عن المكان الذي قرره[1].

وبعد أن شفى الإمبراطور الألماني من مرضه، أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع ملك مملكة بيت المقدس بلدوين الثالث وأمه ميلسندا وكبار القادة ورجال الدين.

ولكن وبعد الوصول إلى بيت المقدس حدث ما لم يكن متوقعًا، وهذا ما سنعرفه في الفصل التالي:

***

(١)الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص٧٧٠

الفصل الثاني

تغيير المسار إلى دمشق

بعد أن وصلت الجيوش الصليبية إلى بيت المقدس، اجتمع الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني كونراد الثالث وآخرين مع مضيفهم الملك القاصر ملك بيت المقدس بلدوين الثالث، ووالدته ميلسندا، لدراسة الأوضاع الجديدة، واتخاذ القرار الخاص باسترداد مدينة الرها، ولكن في الاجتماعطرح رأي يقضي بتغيير وجهة مسار الحملة الصليبية التي جاءت من أجله في أول الأمر، وهو استرداد إمارة الرها والقضاء على القوة الزنكية، ومن ثم تأمين الأوضاع الخاصة في إمارتي الرها وأنطاكية[١].وانقسم هؤلاء إلى فريقين:

الأول: يمثله زعماء هذه الحملة مع ملك بيت المقدس ووالدته، وهدفهم الاستيلاء على دمشق من أسرة طغتكين، بهدف توسيع ممتلكات بيت المقدس وتعويض الصليبيين عما كانوا قد فشلوا في تحقيقه سابقًا، رغم أن حكام دمشق كانوا حلفاء لملك بيت المقدس في بعض الأحيان.

الثاني: يمثله صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وصاحب الرها سابقًا جوسلين الثاني، وهم يرون مواجهة نور الدين محمود في حلب وشمالي الجزيرة، أولى من الدخول في مغامرات بجنوب الشام، خصوصًا أن خطر المسلمين بهذه المنطقة لايساوي خطر الزنكيين في الشمال، بسبب مسالمة حكام دمشق وضعف الفاطميين[٢].

والفريق الأول الذي اتفق على الفوز بدمشق، لكنهم اختلفوا في النوايا

(١) الغامدي: الجهاد ص٢٥٠

(٢) الغامدي: المصدر نفسه ص٢٥٠

المبيتة. فبينما طمع بلدوين الثالث ووالدته في أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة لمملكة بيت المقدس، بينما بعض الصليبيين يؤيدهم لويس السابع يطمعون في الفوز بدمشق ليقيموا فيها إمارة صليبية جديدة.

وتمكّن هؤلاء من التغلب على الفريق الثاني، وهكذا انشق الصف الصليبي وعاد منهم من عاد إلى بلاده.

دعت الملكة ميلسندا في العام ذاته ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م زعماء الحملة إلى عقد اجتماع في عكا للتشاور في أمر الخطة التي يجب السير عليها، وذلك للاستفادة من جموع الصليبيين في توسيع رقعة مملكة بيت المقدس، وبعد مناقشات ومداولات واختلاف في الآراء استقر أمرهم أخيراً على منازلة دمشق(١).

ويقول وليم الصوري: «عُقد اجتماع عام في مدينة عكا وانخرطوا جميعًا في مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط أكثر فائدة(٢)، وتم الاتفاق أخيراً على أنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الإقدام على حصار دمشق، ذلك أنها مدينة كانت تشكل خطراً كبيراً علينا»(٣).

ويقول ميشيل بالار: «في اجتماع عقد في عكا في يونيو يقنع كونراد، لويس السابع بالتخلي عن مهاجمة الرها، هدف الحملة، وبقيادة قواتهما المشتركة ضد دمشق»(٤).

وقال ابن الأثير: «في هذه السنة سار ملك الألمان في خلق كثير، وجمع عظيم من الفرنج، عازمًا على قصد بلاد المسلمين، وهو لا يشك في ملكها

---

(١) الغامدي: المصدر نفسه ص٢٥١، نقلا عن ابن القلانسي: الذيل وأبو شامة: الروضتين وغيرهما.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ص٧٧٦

(٣) الصوري: المصدر نفسه ص٧٧٩

(٤) بالار: ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن ١١ إلى القرن ١٤ ص١٨٩

بأيسر قتال، لكثرة جموعه، وتوافر أمواله وعدده، فلما وصل إلى الشام قصد مَن به مِن الفرنج وخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه»(١).

يتعجب المؤرخون الأوروبيون من عزم الصليبيين على مهاجمة معين الدين أنر ودمشق، ويرون أن الهجوم على نور الدين كان أجدى.

ووصف رنسيمان هذا القرار بأنه: «اتسم بالحماقة المطلقة، فقد تكون دمشق فعلاً جائزة سنية، ويؤدي تملك الفرنج لها إلى قطع الصلة نهائيـاً بين المسلمين في مصر وإفريقية، وبين إخوانهم في شمال الشام والشرق، غير أن مملكة البوريين بدمشق هي التي انفردت عن سائر الممالك الإسلامية بالحرص على الإبقاء على الصداقة مع الفرنج»(٢).

أما الدكتور حسين مؤنس فله رأي آخر، إذ يقول: «لكن جيوشهم المعاصرة لو كانت في موقف الصليبيين لما فعلت غير ما فعلوه، لأن الجيوش إنما تبدأ بمواضع الضعف لتنفذ منها وتستعين بالنصر فيها على مهاجمة مواضع القوة والحصانة»(٣).

ويبدو أن بارونات بيت المقدس طمعوا في الحصول على البلاد الخصيبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق، واشتد تأثرهم كلما تذكروا ما تعرضوا له أخيراً خلال الرحلة من ذل وهوان، ولم تكن لحلب أهمية عند الصليبيين القادمين من الغرب، أما دمشق فجرى تبجيلها في الكتاب المقدس، لذا فإن استخلاصها من أيدي المسلمين سوف يردد مجد المسيح في سائر الأنحاء...إذا جرت مهاجمة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٦٨١

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٤٥٢

(٣) مؤنس: نور الدين محمود ص٢١٤

دمشق فإن أسلم وسيلة لحكامها أن يرتموا في أيدي نور الدين[١].

أدرك نور الدين زنكي أهمية استمالة القوى الإسلامية المتعددة في شمال العراق والشام، ومحاولة كسب ودها، وصداقتها من أجل تقوية الجبهة الإسلامية لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعمل على استمالة حكام دمشق، بهدف تهدئة النفوس ولم الشمل، وترتب على هذه الجهود، توقيع اتفاقية صلح بين نور الدين ومعين الدين أنر في دمشق عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م[٢]، ولكي يؤكد نور الدين هذا الاتفاق وإظهار حسن النوايا تزوج من ابنة معين الدين أنر، وكان هدفه جمع كلمة المسلمين[٣].

ورغم أن معين الدين أبقى صداقته وتحالفه مع الصليبيين، لكنهم أغضبوه عندما عقدوا اتفاقاً مع التونتاش حاكم بصرى وصرخد الذي عرض عليهم مدينتيه مقابل الاستقلال بحوران عن دمشق[٤].

كان نور الدين محمود الذي تولى الحكم عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م يتوقع أن تكون إمارته حلب الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط الرها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، في يد عماد الدين، ثم استعادتها من قبل نور الدين بعد أن استولى عليها جوسلين، إلا أن تغيير الهدف من قبل أمراء الحملة الصليبية،والتوجه إلى دمشق، كان مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر، لاسيما أن حكام إمارة دمشق كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة،

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ح٢ ق١ ص٤٥٢-٤٥٣

(٢) عاشور: جهاد المسلمين ص٢١١

(٣) عاشور: المصدر نفسه ص٢١١

(٤) عاشور: المصدر نفسه ص٢١٢

وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما حاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب[١].

فَهِم نور الدين محمود أن المغزى الحقيقي للحملة الصليبية الثانية، أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها، لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليفة الفرنجة في المنطقة، ولم تتوجه إلى حلب أو الرها، حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، وأدرك نور الدين أن هدف الحملة هو احتلال المشرق الإسلامي، والسيطرة عليه، كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام، وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد، ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها[٢].

ولا شك أن الهدف الأساسي من غزو دمشق بدلاً من حلب، هو إقامة إمارة صليبية جديدة تكون قريبة من بيت المقدس تعوضهم على أقل تقدير عن إمارة الرها التي وقعت بيد المسلمين.

وكان نور الدين يدرك أن دمشق نقطة ضعف، لو استثمرها الصليبيون ونجحوا في احتلالها، لأصبح المسلمون في وضع خطير سوف يعيدهم سنوات عدة إلى الوراء.

لهذا تضامنت الإمارات الإسلامية ضد الغزاة الطامعين، وحشد نور الدين جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٢

(٢) الصلابي: المصدر نفسه ص٤٤٣

حمص وبعلبك، لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق[١].

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة التي تضم الصليبيين المقيمين في الشام، والصليبيين القادمين من أوروبا - التي تعتبر أضخم ما قذف به الفرنج من جيوش في ساحة المعركة[٢]- نحو دمشق يوم السبت ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وكان يحكمها آنذاك معين الدين أنر، أكثر الأمراء المسلمين قربـًا من الفرنج وتعاونـًا معهم، الذي لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الضخمة[٣].

وقال رنسيمان: «من العبث أن نخص القرار -أي الهجوم على دمشق- باللوم والتقريع، على أن البارونات المحليين الذين أدركوا الموقف، يتحملون من المسؤولية ما يتحمله البارونات القادمون حديثـًا، الذين يعتبرون المسلمين عندهم سواء»[٤].

واستنجد معين الدين أنر بأمير الموصل سيف الدين غازي، رغم أنه لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق، فردَّ عليه سيف الدين: «قد حضرتُ ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئتُ إليك ولقينا الفرنج، وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي، وكانت الهزيمة، والعياذ بالله علينا، لا يسلم منا أحد لبُعد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتُسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن

(١) الصلابي: المصدر نفسه ص٤٤٣

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٤٥٣

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٢

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٤٥٢

كانت النصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق، ولا أقيم بها، إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي»[١].

وقد ماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج[٢]، فأرسل إليهم رسالة يهددهم فيها بتسليم دمشق لسيف الدين أو نور الدين إذا حاولوا اقتحامها[٣]. وقال لهم: «إن مَلِك الشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمتُ البلد إليه، وحينئذ تندمون»[٤].

وكتب معين الدين لحكام القدس قائلاً: «بأي عقل تساعدون هؤلاء-أي الإمبراطور الألماني كونراد والملك الفرنسي لويس السابع- وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا مدينة دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد، سلمته إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنه إن مَلَك دمشق لا يبقى لكم منه مقام بالشام»[٥].وقال لهم أيضـاً: «أنتم بين أمرين مذمومين إن مَلَك هؤلاء الغرباء -أي الفرنجة القادمون من أوروبا-دمشق، لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين، فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من بيت المقدس»[٦].

هذه السياسة التي قام بها حاكم دمشق، وهي سياسة فرق تسد، هدفها تشتيت إجماع العدو، ومحاولة زرع بذور الفتنة بينهم. وهنا نتساءل: هل ستنجح هذه السياسة أم لا؟. الفصل التالي يجيب على هذا السؤال:

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٢٠٦
(٢) أبو شامة: المصدر نفسه ج١ ص٢٠٦
(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٦
(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١١٣
(٥) ابن واصل: المصدر نفسه ج١ ص١١٣
(٦) ابن الأثير: الباهر ص٨٩

الفصل الثالث

فشل الحملة

في ظل استمرار المناورات بين الأطراف المتصارعة، ومحاولة سعي كل فريق إلى تشتيت فكر الفريق الآخر، أو إجباره على تقديم تنازلات، عرض حاكم دمشق معين الدين أنر، على الصليبيين قلعة بانياس،مقابل الانسحاب عن فكرة غزو دمشق، خصوصاً بعد تهديد أنر للصليبيين بتسليم بلاده لأمير الموصل، إن أصروا على رأيهم بغزو بلاده، لهذا قبل حكام القدس عرض معين الدين، وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية[١].

وذكر المؤرخون إن: «الصليبيين قرروا الانسحاب عن دمشق نتيجة الصمود الذي أبداه معين الدين أنر، وما وصله من الإمدادات وما تواتر لدى الصليبيين من أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى جهادهم والمسارعة إلى استئصالهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار»[٢].

وظل الفرسان المسلمون، طوال ذلك اليوم، وبضعة أيام متتالية يضغطون على جناحي الجيش الصليبي، ويمطرون الجموع بوابل من السهام، وتناثرت جثث الرجال والخيل على امتداد الطريق، وأفسدت رائحتها لشهور عديدة تالية، ثم عادت إلى فلسطين الحملة الحربية الكبيرة، ورجعت العساكر المحلية إلى أوطانها[٣].

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٦

(٢) الغامدي: الجهاد ص٢٥٤

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٤٥٧

وأكد المؤرخون وجود سبب آخر ساهم في انسحاب الصليبيين عن دمشق هو حدوث خلاف بين الفرنجة، الوافدين الجدد من أوروبا، والصليبيين المقيمين في المشرق، حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها![١].

فبينما طمع بلدوين الثالث ووالدته ميلسندا في أن تصبح دمشق عند الاستيلاء عليها تابعة لمملكة بيت المقدس، إذا ببعض الصليبيين يؤيدهم لويس السابع يطمعون في الفوز بدمشق ليقيموا فيها إمارة صليبية جديدة[٢].

حينئذ انسحبت جيوش الفرنجة عن دمشق، وتوجهت إلى فلسطين في الساعات الأولى من يوم الأربعاء من أسبوع قدومهم نفسه، ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس أشهر عدة، ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا، وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع[٣].

لم يكن فشل هذه الحملة حدثًا عابراً، وإنما كان بعيد المدى في تحديد الصراع بين الصليبيين والمسلمين، علاوة على أن زعماء هذه الحملة فشلوا في تحقيق أدنى حد من هدفهم حين سعوا إلى تحقيق رغبة ملك مملكة بيت المقدس بلدوين الثالث وأمه، بالهجوم على دمشق، فقد أتاحوا لنور الدين محمود فرصة ملائمة للتفكير الجدي في السعي إلى ضم دمشق فيما بعد، كما أنهم فقدوا أكبر حليف لهم في بلاد الشام والمتمثل في أسرة طغتكين بدمشق[٤].

لقد كان فشل الحملة ذريعًا رغم أن جيشها كانت أكثر نظامًا من جيش

---

(١) الغامدي: الجهاد ص٢٥٤

(٢) الغامدي: المصدر نفسه ص٢٥٤

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٤٦

(٤) الغامدي: الجهاد ص٢٥٤

الحملة الأولى، فليس فيه المتشردون والأشقياء، وكان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم[١]، ومع ذلك كان مصيرها الفشل.

واعتبر المؤرخ الإنجليزي رنسيمان فشل الحرب الصليبية الثانية بأنها: «نقطة تحول في تاريخ الفرنج بالشرق الأدنى، إذ أن سقوط الرها أتم المرحلة الأولى في الإفاقة الإسلامية، وما جناه المسلمون من أرباح أكدها الانهيار الفاجع الذي تعرضت له الحملة الكبيرة التي كانت تهدف إلى إعادة سيادة الفرنج»[٢].

ورأى المؤرخ يوشع براور أن «فشل هذه الحملة تسبب في إحداث التمزق في الجسد الصليبي، واختلال محتوم للتوازن السياسي الذي كان راسخاً خلال الخمسين عاماً الأولى من الوجود الصليبي، وأدى الهجوم الطائش للحملة الصليبية الثانية ضد دمشق الحليف الإسلامي الوحيد للصليبيين إلى اندفاع دمشق نحو ذراعي نور الدين محمود، الذي عزز موقفه، ووحَّد الجبهة الإسلامية»[٣].

بينما يقول المؤرخ ميشيل بالار: «وعند إعلان قرب وصول قوات موصل وحلب تحت قيادة ابني زنكي، تنسحب الجيوش الفرنجية انسحاباً يدعو إلى الرثاء وتصبح هزيمتها كاملة»[٤].

ولنقرأ ما كتبه وليم الصوري حول هذه الهزيمة، إذ يقول: «.. وعندما حل اليوم الخامس والعشرون من مايو ١١٤٧م زحفت الجيوش المتحدة، وأخذت الطريق نحو طبرية، ثم توجهت الحشود جميعها من هناك فسايرت أقصر الطرق حول بحيرة طبرية حتى بانياس»[٥]... وتملك النصارى النهر، الذي يجري

(١) كرد: علي محمد، خطط الشام ص١٩
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٤٦٧
(٣) براور: يوشع، الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس ص٤٢
(٤) بالار: الحملات الصليبية ص ١٩١
(٥) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٧٩

داخل المدينة، وصاروا يصلِون إلى ضفتيه بكل حرية، ونصبوا معسكرهم على امتداد النهر وتصرفوا بمياهه واستفادوا منها دونما معارضة، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين، واستولت الدهشة على أهل المدينة[١]..وبدا لجميع الحضور أنه سيتم الاستيلاء على المدينة التي كانت مصابة بحال من الهلع، إذ فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة، وكانوا يعدون أنفسهم لمغادرتها بكل سرعة على أمل إنقاذ حياتهم[٢].

وحاول الدمشقيون عن طريق الرشاوى تملك قلوب الذين لم يكن لديهم أمل في قهر أبدانهم، وأقنع النبلاء أولئك الأشخاص عن طريق الوعود بتسلم مبالغ طائلة من المال، بالعمل على رفع الحصار»[٣]... فأقنعوهم بترك البساتين وتحول الجيوش إلى الجهة المعاكسة من المدينة التي لا يوجد بها بساتين حماية ولا نهر ولا خندق يعيق الوصول إلى دفاعات العدو[٤]...وانطلت هذه الحيلة على الملوك وكبار القوات المتحدة، وآمنوا بصحة الأقوال المخادعة، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة[٥]...وفي الحال أدركوا أن هذا الموقع كان بعيداً عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول إليه، ولما بدأت الأطعمة في النقصان، لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها، إنما بعد فوات الأوان، وأخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا بتحويلهم من ذلك الموقع الممتاز[٦].

---

(١) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٣
(٢) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٤
(٣) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٤
(٤) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٤
(٥) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص ٧٨٤
(٦) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٤

وبدا واضحـاً أن العودة إلى الموقع السابق صعبة، لا بل مستحيلة، لأنه ما أن انسحب النصارى حتى تحققت غايات العدو، الذي سارع بالدخول إلى البساتين لإقامة دفاعات أقوى مما سبق[١]، واتضح لجميع الأمراء معالم الخيانة لهذا قرروا العودة إلى الديار[٢]،عادوا وهم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف، وسلكوا في طريق عودتهم الطريق نفسها التي أتوا منها[٣].

وخرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة، من هذه الدروس:

- الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم.
- الأهمية الاستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة.
- ضرورة الاستيلاء على دمشق بأي ثمن.
- وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار.

أدت هذه الحملة الفاشلة إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام، وهو ما يؤكده وليم الصوري بقوله: « لقد أصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعداً في الشرق، أكثر سوءاً بشكل واضح، ورأى أعداؤنا أن الأعمال التي نفذها قادتنا وملوكنا الأقوياء كانت أعمالاً عقيمة، وأن جميع الجهود التي بذلوها كانت بلا جدوى، وسخِروا من القوة المحطمة والمجد المتصدع للذين كانوا يمثلون الأسس الجوهرية للمسيحيين، وكانوا قد احتقروا بكل وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت أسماؤهم ذاتها قد روعتهم من قبل، ولهذا السبب سمَت

(١) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٥

(٢) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٥

(٣) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٥

جرأتهم وشجاعتهم إلى مستويات عالية، حيث لم يعودوا يخافون من القوات المسيحية، ولم يترددوا عن مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير»[١].

وذكر رنسيمان: «ما من حملة في العصور الوسطى تضارع تلك الحملة التي خرجت وانعقدت عليها آمال بالغة الروعة، وإذ وضع خطتها البابا، ودعا إليها وأوحى بها القديس برنارد بما اشتهر به من فصاحة، وقادها أعظم ملكين في غرب أوروبا، كانت تبشر بمجد العالم المسيحي وخلاصه، غير أنه لما بلغت نهايتها المشينة الذليلة بارتدادها المضني عن دمشق، كان كل ما أنجزته أنها جعلت العلاقة بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد يؤدي إلى القطيعة بينهم، وأنها بذرت الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثا من الغرب، وبين الفرنج النازلين بالشرق، وأنها أوقعت بين أمراء الفرنج الغربيين، فعزلت كلاً منهم عن الآخر، وأنها حملت المسلمين على أن يزدادوا تقاربـًا، وأنها أنزلت ضرراً خطيراً بما اشتهر به الفرنج من الإقدام في القتال»[٢].

هذه النتيجة التي آلت إليها الحملة الصليبية الثانية، غيَّرت الكثير من الأمور، وبدّلت الكثير من الأفكار، من أهمها حتمية الصراع بين نور الدين محمود مع مملكة بيت المقدس في مواطن مختلفة، من أهمها عسقلان ومصر، وهو ما سنعرف تفاصيله في الباب التالي:

***

(١) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٨٩

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق١ ص٤٦٣

الباب الثالث

المواجهة مع صليبيي المشرق

- الفصل الأول: مقتل ريموند وأسر جوسلين
- الفصل الثاني: خسارة عسقلان
- الفصل الثالث: نور الدين يفتح قلوب أهل دمشق
- الفصل الرابع: انتصارات متعددة

الفصل الأول

مقتل ريموند الصليبي وأسر جوسلين

برز نجم نور الدين محمود زنكي - الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين، وينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية - بعد تلك الحملة، كأحد القادة المسلمين القادرين على حمل لواء الدفاع عن الأمة الإسلامية، وحمل مشعل نهضة الأمة من جديد، وشحذ الهمم لإعلاء كلمة الله عز وجل.

وأثناء حصار دمشق أغارت قوة إسلامية من حلب على إمارة أنطاكية، فاستغل أمير أنطاكية ريموند بواتييه غياب نور الدين عن مدينته، وقرر الانقضاض عليها، فجمع عساكره عند بحيرة العمق قرب حلب، فجاءه نور الدين في جمادي الأولى ٥٤٣هـ/ سبتمبر ١١٤٨م، والتقى الطرفان في مكان يعرف بـ «يغرى»[(١)] ودارت بينهما معركة قاسية انتهت بانتصار نور الدين، وقتل عدد كبير من رجال ريموند، وأسر عدد آخر، فأرسل نور الدين محمود بعض الغنائم إلى أخيه سيف الدين غازي الأول والخليفة العباسي في بغداد، والسلطان السلجوقي مسعود[(٢)].

وفي نهاية ٥٤٣هـ/ ربيع ١١٤٩م أغار نور الدين على الإقليم المحيط بحارم على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم رحل عنها، واكتفى بتدمير ما حولها من القرى، واتجه ليحاصر قلعة أنب على الضفة الشرقية لنهر العاصي قرب معرة النعمان، وفي صفر ٥٤٤هـ/ نهاية يونيو ١١٤٩م التقى نور الدين بجيش

---

(١) يغرى: وتضبط يغرا، وهي من عمل حارم ناحية العمق، ولعلها المعروفة الآن باسم يغله، في محافظة أدلب ناحية كفر تخاريم. ابن العديم: الصاحب كمال الدين، حاشية زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٤٧٥

(٢) ابن الاثير: الكامل ص ١٦٨٣، طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٦٠

ريموند، ودارت رحى معركة شديدة بينهما أسفرت عن انتصار المسلمين[١]، وقتل ريموند على يدي أسد الدين شيركوه، فملك من بعده ابنه بوهيمند وهو طفل[٢].

وقال وليم الصوري: «أرسل نور الدين محمود رأس ريموند وذراعه اليمنى في صندوق من فضة هدية إلى الخليفة العباسي، للبرهنة على أن المضطهد الأشد إرعاباً للأمم بات قتيلاً، ثم جرى إرساله بعد ذلك إلى بقية الحكام الأتراك جميعاً في كل مكان من الشرق»[٣].

ووصف أثر مقتله على أهل بلاده بقوله: «استسلم أهالي أنطاكية بحزن المطلق بعدما حُرموا من تأييد قائدهم العظيم، وتذكروا بكلمات حزينة وبكاء وعويل وصراخ الإنجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع، ولم يقذف نبأ وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الأحواز فحسب، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولاً وعرضاً، وملأ قلوب العظماء والوضعاء جميعاً بحزن كله مرارة»[٤].

وذكر ابن الأثير: «.. وكان ممن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم»[٥].

وفي عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م وقعت معركة بين نور الدين محمود وجوسلين

(١) طقوش: المصدر نفسه ص٢٦٠

(٢) بوهيمند: ضبط الاسم بأكثر من شكل مثل: بوميند أو بوهيموند، استقل بإمارة أنطاكية عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، بعد صراع على العرش مع والدته الأميرة كونستانس، انتهى بنفي الأميرة واختفائها عن مسرح الأحداث. ابن العمري: المسالك ص٣٤-٣٥.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٨٥

(٤) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٩١

(٥) ابن الاثير: الكامل ص١٦٨٥

الثاني صاحب القلاع التي في شمال حلب وهي: تل باشر، وعين تاب، وعزاز وغيرها من الحصون، وتمكن جوسلين من تحقيق الانتصار فيها، وأسر «سلاح دار»[١] أي رافع راية نور الدين، فأرسله إلى صاحب قونية السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي[٢] وكان نور الدين قد تزوج ابنته، وقال في رسالة بعثها إليه: «قد أنفذت إليك سلاح صهرك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم»[٣]، فعلم نور الدين بذلك، فعظم عليه الأمر، فأحضر جماعة من التركمان وقدم لهم المال الكثير، وطالبهم بإحضار جوسلين حياً أو ميتاً[٤]وقيل أسيراً أو عقيراً[٥].

خرج جوسلين الثاني ذات مرة مع عدد قليل من حرسه إلى الصيد، فقبض عليه التركمان، وهنا أدرك جوسلين أنهم سيرسلونه إلى نور الدين إن لم يفكر بحيلة يتخلص منهم، فوعدهم بتقديم الكثير من الأموال إن هم تركوه وأخلوا سبيله، فوافقوا على ذلك[٦]فأرسل جوسلين الثاني إلى رجاله يطلب منهم المال، لذا أخفى التركمان الأمر عن نور الدين، إلا أن بعض التركمان قرروا إخبار نائب نور الدين بحلب أبي بكر بن الداية[٧] بما حدث، فأرسل عساكره

(١) سلاح دار: هو لقب الذي يحمل سلاح السلطان أو الراية، ويتولى أمر السلاح خاصة، وهو لقب مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح. القلقشندي: صبح الأعشى ص٤٦٣

(٢) مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي: توفي عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م وخلفه على ملك قونية ابنه قليج أرسلان. ابن العمري: المسالك ص٣٧

(٣) ابن العمري: المسالك ص٣٧

(٤) ابن الاثير: الباهر ص١٠٢، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٢٣

(٥) عقير: أي جريح، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٢٣

(٦) الغامدي: الجهاد ص٢٥٩

(٧) أبو بكر بن الداية: هو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية، توفي بحلب في رمضان ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م، وهو رضيع نور الدين ومن أكابر أمرائه. ابن العمري: المسالك ص ٣٧، الأصفهاني: سنا البرق ص٣٨

للقبض عليه رغماً عن أنف قابضيه، وتم له ما أراد[١].

وكان أسرجوسلين من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم، لما يعلمون من شجاعته، وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها[٢].

وذكر مؤرخ بيت المقدس: « بحثَتْ عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سيدها، حيث كانت غير عارفة أبداً بما كان قد حدث، ولم تتمكن من العثور عليه، وعندما ثبت أن بحثها كان عقيماً، عادت ونقلت نبأ الكارثة التي كانت قد أصابتها، وأصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد»[٣].

ورغم ذلك قال عنه: «كان رجلاً كسولاً ومهملاً ومنغمساً في المسرات الخليعة والوضيعة، كان شخصاً رفض كل السبل الحميدة واتبع المهن الوضيعة»[٤].

وكان جوسلين الثاني كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمِن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقيه غدره وحاق به مكره[٥].

قيل إن جوسلين مات في أسره بعد تسع سنوات أي في عام٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٦]، وقيل أنه قدم الكثير من الأموال لنور الدين لإطلاق سراحه، فاستشار الأخير أمراءه، فلم يوافقوا على إطلاقه، إلا أن نور الدين خالفهم

(١) ابن الأثير: الكامل ص ١٦٨٨، أبو شامة: الروضتين ج١ ص٢٤٥

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٠٢، أبو شامة: المصدر نفسه ج١ ص٢٤٥

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٧٩٣

(٤) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٧٩٣

(٥) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٢٤٥

(٦) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٧٦

وأطلقه، وفي الطريق وقبل أن يخرج من حلب مات، فانتفع المسلمون بالأموال التي أخذوها منه[١].

بعد ذلك أصبح من السهل على المسلمين، أن يغزوا الفرنج، بعدما خلت بلادهم من حاميها، لذا فتح المسلمون الكثير من القلاع منها: تل باشر، عين تاب، وعزاز وقورس، والرواندان، وحصن البارة، وتلخالد، وكفر لاثا، وكفرسوت[٢]، وحصن بسرفوت بجبل بني علم، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز[٣]، وبرج الرصاص[٤].

وكانت خطة نور الدين في الاستيلاء على هذه الحصون أنه كلما فتح واحداً منها، نقل إليه كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكسة تلحق المسلمين من الفرنج، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو[٥].

وهذا ما أكده العمري وأبو شامة وابن الأثير بقولهم: «..وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر[٦] تكفيه عشر سنين، خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء»[٧].

وبهذا الانتصار زالت إمارة الرها الصليبية نهائياً مع حصونها من الوجود،

---

(١) ابن الأثير: حاشية الباهر ص١٠٢ نقلاًعن ابن الورى ج٢ ص٥٢

(٢) كفر سوت: تقع جميعها بنواحي حلب، كفر سوت هكذا ذكرها ابن الأثير في الكامل، بينما ضبطها العمري في المسالك، ج٢٧ص٣٨ «كفر سود»

(٣) نهر الجوز: هو جزء من نهر الفرات، كان يعبر منه نحو الغرب. ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص٣٢٣

(٤) ابن الأثير: الباهر ص ١٠٣، برج الرصاص: قلعة ولها رسانيق من أعمال حلب قرب أنطاكية. الحموي: ياقوت، معجم البلدان ج١ ص٣٧٣

(٥)ابن الأثير: الكامل ص١٦٨٨

(٦)ابن العمري: المسالك، ج٢٧ص٣٨

(٧)أبو شامة: الروضتين ج١ ص ٢٤٥، ابن الأثير: الباهر ص١٠٣

وعادت أراضيها إلى السيادة الإسلامية[١].لكن حدث في عسقلان زلزال كبير هز العالم الإسلامي سنتعرف على تفاصيله في الفصل التالي:

***

(١)طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٧٨

الفصل الثاني

خسارة عسقلان

كان من الواضح أن هناك مواجهة جديدة بدأت تظهر معالمها على السطح بين نور الدين والصليبيين، هذه المواجهة التي كان هدفها الأول والأخير البحث عن موطئ قدم جديدة، من أجل قيام كل طرف بالضغط على الآخر، بهدف الوصول إلى مصر أولاً وكانت المواجهة في عسقلان.

تقع عسقلان على ساحل البحر على شكل هيئة نصف دائرة كبيرة، وتمتاز باستحكاماتها القوية[١]فهي محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضخمة من الأسلحة والمؤن، وكانت محطة على الطريق بين الشام ومصر[٢].

وقد ترتب على زوال إمارة الرها وإضعاف إمارة أنطاكية أن انتقل مركز الثقل الصليبي إلى مملكة بيت المقدس التي يحكمها الملك الصغير بلدوين الثالث[٣] تحت وصاية أمه[٤].

فقد بدأ بلدوين يُحصن غزة ويُشحنها بالإمدادات والمقاتلة تمهيداً للهجوم على عسقلان، وبلغت الأخبار مصر، واهتم لها الوزير الفاطمي ابن السلار واستنجد بنور الدين، وكان في ذلك الوقت مُعسكِراً إلى جوار دمشق.

وكان أسامة بن منقذ[٥] مقيماً في مصر إذ ذاك، فوقع اختيار ابن السلار

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٠٩

(٢) مؤنس: نور الدين محمود ص٢٥١

(٣) يعتبر بلدوين الثالث أول ملك من ملوك مملكة بيت المقدس يولد على أرض المملكة الصليبية نفسها، فهو يمثل الابن الحقيقي البكر للمملكة. عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥١١

(٤) سعيد: حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية « جبهة الشام ومصر» ص١٩١

(٥)أسامة بن منقذ: أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة،=

عليه ليقوم بالسفارة لدى نور الدين، فذهب إليه وطلب منه باسم الخليفة الظافر أن يقوم بغارة على إقليم الجليل تشغل بلدوين عن عسقلان. ويبدو أن الملك العادل اعتذر لأسامة بن منقذ عن عدم تقديم العون لابن السلار(١).

ولو كان نور الدين يثق بالفاطميين لما تردد بالقيام بالغارة المطلوبة، لكنه كان يعلم أنهم حفنة من الفاسدين المتعاونين مع الصليبيين لا يُؤمَن جانبهم، ولعله يغامر بنفسه وجنوده فيجد الفاطميين قد تآمروا عليه مع الصليبيين بليل، فآثر ألا يستجيب إلى هذا الطلب، ونفسه تفيض بالألم إلى هذا الثغر(٢) الإسلامي المهم الذي لا يستطيع نجدته(٣).

وقد نجح بلدوين في حسم الصراع بينه وبين نور على عسقلان – آخر معقل فاطمي في فلسطين في جمادي الأول ٥٤٨هـ/ أغسطس ١١٥٣م– لصالحه بعد حصار استمر أشهر عدة.

وقرر بلدوين جعل عسقلان بعد ذلك إقطاعـاً لكونت يافا شقيقه عموري(٤)، وكان الفرنج يقصدونها كل عام، ويحاصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً(٥).

ومن المفارقة الغريبة أن عسقلان سقطت في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ أبو الميمون عبد المجيد الذي ولد في عسقلان، وكان يُخاطَب قبل

= مجد الدين أبو المظفر الشيرزي، ولد عام ٤٨٨هـ وتوفي بدمشق عام ٥٨٤هـ. الحنبلي: شذرات الذهب ج٣ ص٢٧٩

(١) راجع ابن منقذ: كتاب الاعتبار ص٣٥-٣٨ الذي يشرح فيه أسامة بن منقذ ما جرى له في سفره، وما دار بينه وبينه نور الدين

(٢) الثغر: كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً، كأنه مأخوذ من الثغرة، وهي الفرجة في الحائط وجمعه ثغور. الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٧٩

(٣) مؤنس: نور الدين محمود ص٢٥١

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٣

(٥) ابن الأثير: الكامل ص١٦٩٨

الخلافة بالأمير عبد المجيد العسقلاني، وهو الذي أهملها حتى ضاعت بعد أيامه بقليل[١].

ويؤكد ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء على عسقلان، على جانب كبير من البأس، فقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارات على أعماله[٢].

وبسقوط عسقلان حقق الصليبيون انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود والفاطميين، وانتصارهم على نور الدين يفوق انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن هذه الدولة قد وهنت ولم تعد تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما مثَّل نور الدين قوة سياسية وحربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق.

وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها، فقد مثلت مركزاً تجارياً مهماً على الساحل الفلسطيني[٣] علاوة على أنها ظلت طوال خمسين عاماً تتحدى في سخرية جهود الملوك الذين تعاقبوا على حكم المملكة اللاتينية[٤].

ولعل بلدوين الثالث أراد بهذا العمل أن يسد الطريق على نور الدين المؤدي إلى مصر، وأن يمهد للفرنج السبيل إلى فتحها[٥].

---

(١) مؤنس: نور الدين محمود ص٢٤٩

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٢٠

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٧٣

(٤) باركر: الحروب الصليبية ص٧٨

(٥) باركر: المصدر نفسه ص٧٨

■ سبب الهزيمة

كان الوزراء في مصر يرسلون إلى عسقلان كل سنة من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال، من يقوم بحفظها[١]، وكانت الدولة الفاطمية تمد أهلها بالمعونة عن طريق البحر، دون أن يغامروا بتقديم المساعدة عبر البر .

وفي هذه السنة أي ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، انغمست الدولة الفاطمية في سلسلة لا تنقطع من المؤامرات والاغتيالات، وقد أتاحت هذه الفوضى السياسية الفرصة للملك بلدوين الثالث بتوجيه نشاطه الحربي داخل مصر، وهي السياسة التي اتخذت طابعاً عملياً واسع النطاق على يد الملك عموري الأول فيما بعد، فكان لابد من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان أولاً، الفرنج وحاصروها في ذي الحجة ٥٤٧هـ/ مارس١١٥٣م، واستمر الحصار بضعة أشهر[٢]، خصوصاً أن الخلافة الفاطمية أضحت من الضعف ما يؤذن باقتراب زوالها، فلا ينبغي أن تقع في يدي نور الدين[٣].

أما عن كيفية سقوط عسقلان فيقول ابن الأثير: «لقد صبر أهلها، وقاتلوهم قتالاً شديداً، حتى إنهم قاتلوا خارج السور، وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين وتبعهم أهل البلد إليها، فأيس حينئذ الفرنج من ملكه، وعندما عزم الفرنج على الرحيل، ادعى فريق -أي من أهل عسقلان-أنهم السبب في هزيمة الفرنج وادعى فريق آخر أنهم أصحاب هذا النصر، فاشتد الخطب، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم، فقتل منهم الكثير، ووصل الخبر إلى الفرنج، وزحفوا إليهم، ولم يجدوا من يمنعهم فملكوها»[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٦٩٨

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٢ -٢٨٣

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٩٠

(٤) ابن الأثير: الكامل ص١٦٩٨

وقال وليم الصوري أنه: «نتيجة للقذف شبه المتواصل من القوات الصليبية وبعد حصار طويل، اضطرت الحامية إلى التسليم، بشرط إعطاء الأمان للسكان، أثناء خروجهم من المدينة، فقبل بلدوين الثالث هذا الشرط، والتزم بتنفيذه، ودخل الصليبيون المدينة وتسلموا القلعة بما حوته من مال وسلاح»(١).

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من إسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب، الأمر الذي حرم المسلمين من قاعدة بحرية طالما استغلوها في مهاجمة الممتلكات الصليبية في فلسطين(٢).

وكان هذا الاستيلاء المرحلة الأخيرة لما أعده الصليبيون من الخطط للسيطرة على مصر، خصوصاً أنه منذ أيام الملك غودفري وبلدوين الأول كانت مصر هدفاً لأطماع اللاتين(٣).

كما يعتبر الاستيلاء على عسقلان آخر ما أحرزه ملوك بيت المقدس من انتصارات باهرة،وبفضله ازدادت مكانتهم ارتفاعاً، إذ أن الفوز آخر الأمر بالمدينة المعروفة بعروس الشام يعتبر من الإنجازات التي ذاع صيتها، وتردد صداها، على أنه في الواقع لم يجن كسباً مادياً كبيراً(٤).

لقد فاق انتصار الصليبيين على الفاطميين في عسقلان بكثير انتصارهم على السلاجقة في أنطاكية، حتى أنه يمكن القول أن الهزيمة التي حلت بكربوقا

---

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص ٢٨٣ نقلًا عن الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ص٨١١، ٨١٤، ٨١٦، ٨٢١

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥١٩

(٣) باركر: الحروب الصليبية ص٧٨

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٤٨

على أيدي الصليبيين أخرجت السلاجقة من معركة الشام مؤقتـًا، أما انتصار الصليبيين في موقعة عسقلان على الفاطميين فقد قضى على هيبة الفاطميين بفلسطين، حتى أصبحت أيدي الصليبيين طليقة فيها، مثلما صارت أيديهم طليقة في شمال الشام عقب انتصارهم على كربوقا[١].

وقد أحدث سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين هزة عنيفة حرَّكت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، ولم تكن خطورة هذا الحدث في أن المدينة كانت آخر معقل للمسلمين في جنوبي بلاد الشام، بقدر ما كانت خطوة إلى الأمام أوصلت الصليبيين إلى أبواب مصر التي لم تكن موصدة بإحكام[٢]، لا سيما أن سقوط عسقلان جعل الفوضى تزداد في البلاط الفاطمي[٣].

في ظل هذه التطورات كان الكل يترقب الخطوة التي سيقوم بها نور الدين محمود بعد سقوط عسقلان، وهذا ما سنتعرف عليه في الفصل التالي:

***

(١) الغامدي: الجهاد ص١٢٢

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٤

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٩٠

الفصل الثالث

نور الدين يفتح قلوب أهل دمشق

مع تصاعد حدة الصراع ضد الصليبيين، أصبح ضم دمشق أمراً عاجلاً ومُلحاً بالنسبة لنور الدين محمود وللجبهة الإسلامية(١)، فبعد استيلاء الفرنج على عسقلان، باتت دمشق الحد الفاصل بينهما، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط(٢)لذلك سعى نور الدين إلى ضمها، قبل أن تسقط بيد الصليبيين.

وكان نور الدين قد ورث عن أبيه عبء ضم دمشق، خصوصاً أن حكامها انتزعوا بلعبك من عماد الدين زنكي قبل وفاته، عندما كان نجم الدين أيوب فيها نائباً عنه، ومع ذلك استعمل نور الدين الحكمة مع حكام دمشق، حتى أنه تزوج ابنة معين الدين المحرك الرئيسي لسياسة دمشق(٣).

بعد الاستيلاء على عسقلان طمع الصليبيون بدمشق، وبعد وفاة معين الدين استضعفوا مجير الدين أبق بن طغتكين، وأكثروا القتل بها والسبي(٤)رغم وجود معاهدة هدنة بين الصليبيين ودمشق(٥)، لدرجة أنهم استعرضوا كل من بها من مملوك أو جارية من النصارى، فمن أراد المقام بها تركوه، ومن أراد العودة إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى(٦).وجعل الفرنج على أهل المدينة

(١) سعيد: الجبهة الإسلامية ص١٩٣

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٠٦

(٣) الغامدي: الجهاد ص٢٧٢-٢٧٣

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٠٦

(٥) الغامدي: الجهاد ص٢٧٣

(٦) ابن الأثير: الكامل ص١٧٠٠

قطيعة كل سنة، فكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد»[١].

فقلَّت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق، وقلّت هيبته، حتى أنهم حصروه في القلعة[٢]لهذا وجدها نور الدين فرصة لتحقيق هدفه وهو ضم دمشق، ولكن ليس بالقوة، على اعتبار أن الصليبيين يقدمون العون لآل طغتكين في كل مرة يهاجم مدينتهم[٣].

وخاف نور الدين أن يستولي العدو على بلاد المسلمين، فعمل على استمالة الوزير مجير الدين..خصوصـًابعدما أضحت دمشق فريسة يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها، وقد أدرك نور الدين خطورة هذا الموقف[٤].

لجأ نور الدين إلى استخدام السياسة لضم دمشق، ونجح في ذلك في ١٠ صفر ٥٤٩هـ/ ١٨إبريل ١١٥٤م، إذ أنه طلب من عساكره بعدم العبث والإفساد في الضياع التابعة لدمشق، وأمر رجاله بالإحسان إلى الفلاحين لاستمالة قلوبهم، فاستبشر الناس به خيراً[٥]، ورفض نور الدين اللجوء إلى القتال، إذ قال: «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضـًا، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[٦]، لهذا استعمل الحيلة مع صاحبها مجير الدين، وبدأ يراسله ويكسب وده بالهدايا والعطايا، حتى وثق مجير الدين بنور الدين[٧]، ثم أخذ الأخير يوقع بين الأول وقادته وأمرائه، فيكتب له عن بعضهم

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٠٦

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٢٦، باركر: الحروب الصليبية ص١٥٨

(٣) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٨

(٤) باركر: الحروب الصليبية ص١٥٨

(٥) الغامدي: الجهاد ص٢٧٤

(٦) عاشور: جهاد المسلمين ص٢٢٤

(٧) ابن الأثير: الباهر ص١٠٧

بأنهم يراسلونه[١] سراً، فيقبض مجير الدين عليهم ويجردهم من مناصبهم أو يقتلهم، حتى لم يبق له من كبار قادته من يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال[٢]، كما أقنعه أن جماعة من الأعيان يتآمرون عليه، فاستبد الذعر بمجير الدين، فأنزل بهم العقاب[٣].

أصبح مجير الدين مكروهـاً معزولاً عن الأعيان والوجهاء، عندها طلب نور الدين من قائده أسد الدين شيركوه، مراسلة أخيه نجم الدين في دمشق لتسهيل مهمة الإطاحة بمجير الدين وتسهيل فتح المدينة[٤] إذا وصل الجيش إليها، وتم تنفيذ ما اتفق عليه، ودخلها نور الدين من دون قتال[٥]، واستقبله الأهالي بكل تظاهر الفرح والسرور، ووفر جميع المواد الغذائية لهم، وألغى ضريبة الفاكهة والخضروات، ولما عاد إلى حلب أناب عنه نجم الدين أيوب[٦].

ولما استقر نور الدين في البلد، عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عامـاً، وألقى الإسلام بدمشق جرانه وثبت أوتاده[٧]، ويشير في ذلك إلى أن دمشق كانت في ظل الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين[٨].

أرسل نور الدين إلى مجير الدين يُؤمّنه على نفسه ومن معه من الجند،

---

(١)الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٣ نقلًا عن ابن القلانسي: الذيل

(٢) الصلابي: المصدر نفسه ص٤٥٣ نقلًا عن دور نور الدين

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٤٩

(٤) الغامدي: الجهاد ص ٢٧٨

(٥) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٣

(٦) ابن القلانسي: الذيل ص٣٢٨-٣٣٠، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٥٠

(٧) ابن الأثير:الباهر ص١٠٨

(٨) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٨

ووعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وأوفى له نور الدين بوعده[١].

ومن حمص حاول مجير الدين أن يثر الفتنة ضد نور الدين في دمشق، لكن محاولته باءت بالفشل، فلم يكن أمامه سوى مراسلته، فاتفق الطرفان على أخذ حمص منه، وإعطائه بدلاً عنها مدينة بالس[٢]، فلم يرضها، فترك الشام وذهب إلى العراق، فأقام ببغداد، وابتنى له داراً تجاور المدرسة النظامية[٣] حتى توفي فيها[٤]، وصَفَت الممالك بالشام لنور الدين[٥]، ووحَّد دمشق مع حلب، وحقق حلم والده بضمها إلى أملاكه.

ويصف مؤرخ مملكة بيت المقدس وليم الصوري ضم نور الدين لدمشق وهي لا تختلف كثراً عن رواية المؤرخين المسلمين بقوله: «علم نور الدين - الرجل العاقل والنافذ البصيرة - بوفاة أنر والد زوجته، وكان هذا الرجل البارز، الذي كان قائداً عاماً للجيش الدمشقي ومدبراً لأمور الملك -أي بلدوين الثالث- قد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته، وكان نور الدين عارفاً أن ملك بيت المقدس، كان منشغلاً مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسقلان لفترة من الزمن، وشعر بثقة أن بلدوين لن يتخلى عن ذلك المشروع

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٣

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، بعث أبو عبيدة بن الجراح، حبيب بن مسلمة إلى بالس التي كانت مع قاصرين لأخوين من الروم، فصالحهما حبيب بن مسلمة على الجزية أو الجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج، وهي حالياً بلدة مسكنة في سورية. معجم البلدان ج١ ص٣٢٨، ابن العديم: حاشية الزبدة ج١ ص٢٩٩

(٣) المدرسة النظامية: أي التي قام ببنائها الوزير نظام الملك في عهد السلطان السلجوقي ملك شاه، وقد سميت هذه المدارس باسمه

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٠٨

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٢٧

تلقائيـاً للاستجابة لمناشدات الدمشقيين لمساعدتهم ضده، وهكذا انتهز الفرصة وزحف إلى دمشق بجيش كبير للاستيلاء على المملكة بقوة، وقد استقبله الناس بتأييد، واستسلموا له طوعـاً، لأنه أطاح بحاكمهم، حيث كان رجلاً فاسقـاً، وتافهـاً، وأجبره على الفرار إلى الشرق، فأصبح لاجئـاً ومنفيـاً على سطح الأرض»... «وكان هذا التغيير مشؤومـاً بلا جدال لصالح مملكة بيت المقدس، فقد برز خصم مرعب بدلاً من رجل بلا سلطة، جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين، وقد استمر يدفع إليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت»[١].

ويمكن القول إن نور الدين نجح في استثمار الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية، في توحيد الشام تحت قيادته، وقامت دولة إسلامية موحدة من الرها شمالاً حتى حوران جنوبـاً مركزها دمشق، وذلك بعد وفاة معين الدين أنر المهيمن على أمور دمشق في ربيع الآخر ٥٤٤هـ/ أغسطس ١١٤٩م، ووفاة سيف الدين غازي الأول في جمادي الأولى/ سبتمبر من العام ذاته.

وبسقوط دمشق بيد نور الدين محمود زنكي عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م انقطع مُلك بيت آل طغتكين بعد أن استمروا في حكمها ثلاثة وخمسين عامـاً تقريبـاً[٢].

وبضم نور الدين لدمشق تحقق ما يلي:

- أصبحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.
- صار بإمكان نور الدين أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية، وفيالجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية.

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨١٤ -٨١٥

(٢) الغامدي: الجهاد ص٣٨٠

- فتح هذا الإنجاز الطريق نحو القاهرة، التي غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء.
- قامت للمرة الأولى في بلاد الشام منذ أن وطأها الصليبيون دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق.
- حقق نور الدين التوازن بين المسلمين والصليبيين، فإذا كان الصليبيون سيطروا على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندريةإلى غزة، فإن نور الدين جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردي في قبضة قوة إسلامية موحدة [١].

والواقع أن التسابق على ضم مصر لأحد الطرفين لم يكن ليبدأ من دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق[٢]، وبسقوط دمشق بيد نور الدين تحقق جانب كبير من سياسة زنكي ترمي إلى توحيد الجبهة الإسلامية من جهة، ومهاجمة الصليبيين من جهة أخرى، إذ حصر المسلمون الصليبيين على الساحل، وأضحى الطريق إلى مصر أمامهم مفتوحاً، كما يتم تطويق الصليبيين وطردهم، على أن سقوط عسقلان في يد الصليبيين جعل الطريق إلى مصر أمامهم مفتوحاً، ولمصر من الأهمية للصليبيين ما تجعلهم يأملون الإفلات من قبضة نور الدين، وتهيئ لهم سبيل الاتصال مع الغرب، فضلاً عما اشتهرت به من الثروة»[٣].

ويعد ضم دمشق من أهم انجازات نور الدين السياسية الخارجية، فقد تحقق حلم طالما راود الزنكيين، وعدَّه البعض، أعظم إنجازات نور الدين على

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٨٨-٢٨٩

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص ٤٧٤ نقلًا عن الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص١٨٨

(٣) باركر: الحروب الصليبية ص١٥٨

الإطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً [١].

فسيطرة نور الدين على دمشق تعني تحقيق الوحدة بين شمال الشام ووسطه، أو بين حلب ودمشق، للمرة الأولى منذ مقتل تتش بن ألب أرسلان عام ٤٨٨هـ، وقيام هذه الوحدة يعني من وجهة نظر الجهاد الإسلامي إقامة خط دفاعي قوي يمتد من حلب إلى دمشق، تحكمه إرادة واحدة مخلصة هي إرادة نور الدين محمود[٢].

كما تعني سيطرة المسلمين على دمشق أن نور الدين أصبح على مقربة منهم، وهو الخطر الذي ناضلوا طويلاً حتى يتجنبوا وقوعه[٣]، علاوة على أن نور الدين حطَّم الحاجز الذي كان يفصل بين حلب وبيت المقدس أو بالأحرى بين شمال الشام وجنوبه، فأصبحت مملكة بيت المقدس في متناول يد نور الدين محمود، وتحت رحمته، كما كانت الرها من قبل تحت رحمة حكام الموصل، وما زاد من أهمية سقوط دمشق بيد نور الدين في هذه الآونة، أن الإمارات الصليبية لم تكن بينها رابطة كتلك الرابطة التي حققها نور الدين محمود بين صفوف المسلمين في الشام والجزيرة[٤].

وكان أبغض الأشياء إلى الصليبيين أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم، وليست له، فكيف إذا قوي بها؟![٥].

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص ٤٥٣ نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص١١٤

(٢) سعيد: الجبهة الإسلامية ص١٩٤

(٣) سعيد: المصدر نفسه ص١٩٤

(٤) الغامدي: الجهاد ص ٣٨٠ –٣٨١

(٥) ابن الأثير: الباهر ص ١٠٨

إن فكرة ضم دمشق كخطوة أولية لتطويق الوجود الصليبي بدت بشكل عملي في سياسة عماد الدين زنكي أولاً ثم لدى ابنه نور الدين محمود ثانياً.

ففي عام ٥٢٩هـ حاول عماد الدين ضمها إليه، غير أن التوفيق لم يكن حليفه، وفي عام ٥٣٢هـ تزوج عماد الدين زمرد خاتون أم شهاب الدين صاحب دمشق كي يتمكن من امتلاك المدينة فلم يتحقق هدفه، وفي عام ٥٣٤هـ اقترب من السيطرة عليها بعد صراع طويل مع صاحبها، إلا أن الأخير استعان بالصليبيين ضده[١].

وهكذا باءت كل محاولات عماد الدين زنكي باحتلال دمشق بالفشل، وظل هذا الحلم يراود ابنه نور الدين، حتى حققه، وإن أعجب ما يكون أن يتحقق ذلك من دون إراقة دماء، وإنما دخلت دمشق طواعية في ملك نور الدين، وهو ما لم يتوقعه أكثر المتفائلين!.

ومع ذلك لم يكتف نور الدين بهذا الانتصار، وإنما حقق انتصارات أخرى متلاحقة سنراها في الفصل التالي:

***

(١) سعيد: الجبهة الإسلامية ص١٩٢-١٩٣

الفصل الرابع

انتصارات متعددة

■ ضم شيزر

قبل أن تبدأ المواجهة المرتقبة بين الخصمين القويين في المنطقة أي نور الدين والصليبيين، دخلت شيزر عام ٥٥٢هـ في دولة نور الدين بعدما تعرضت لزلزال عنيف، قضى على الأسرة المالكة آل منقذ، فبادر إليها بعض أمراء نور الدين، وقصد إليها وجدد أسوارها، فعادت جديدة.

وكان إخضاعها لنور الدين أمراً تمليه الأحداث، بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها، إذ أنهم بادروا إلى ذلك في العام نفسه، ولا شك أن استيلاءهم عليها كان سيشكل خطراً داهماً على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة.

وحقق ضم شيزر مكاسب تجارية وسياسية واستراتيجية للزنكيين، فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص[١].

وفي عام ٥٥٢هـ كان بالشام زلزلة شديدة، ذات رجفات عظيمة متتابعة، فأخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بحماة وحصن شيزر، فإنهما خربتا بالمرة، وكذلك ما جاورهما كحصن بارين والمعرة وغيرهما من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن الله منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع العساكر وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار[٢].

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٦

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١١٠

وقّع نور الدين معاهدة سلام مع ملك مملكة بيت المقدس بلدوين الثالث، إلا أن الأخير خرقها بعد مهاجمته رعاة الماشية في بانياس ونشبت معركة بينهما في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[١]، وهو ما أكده وليم الصوري بقوله: «شن-أي الملك بلدوين الثالث- غارة مفاجئة على أولئك الناس وهاجمهم كأعداء، بعدما وجدهم غير مستعدين، وليس لديهم أدنى تفكير بأي هجوم، وسلمهم إلى قسوة أتباعه»[٢].

واعتبر الصوري هذا الحدث بأنه: «لم يجلب شهرة متألقة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد انتهكوا معاهدة سلام وأساؤوا بالفعل معاملة أناس غير مرتابين»[٣]، بعد مرور ثلاثة أشهر على توقيعها[٤].

وأرجع أبو شامة قيام بلدوين الثالث بهذا الفعل إلى وصول أعداد كبيرة من المراكب التي تحمل أيضاً أعداداً كبيرة من الصليبيين القادمين من أوروبا[٥].

وكان رد نور الدين قوياً على هذا الفعل الشنيع، إذ نصب كميناً للقوات الصليبية تكلل بالنجاح، وقتل منهم الكثير وصاروا بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح[٦].

وتمكن نور الدين من الاستيلاء على بانياس لكن بلدوين الثالث استردها في العام نفسه.

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٧٤

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص٨٤٢

(٣) الصوري: المصدر نفسه ج ٢ ص٨٤٢

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٩٧

(٥) الغامدي: الجهاد ص٢٦٢، نقلًا عن أبو شامة: الروضتين

(٦) الصلابي: الدولة الزنكية ص ٤٧٤، نقلًا عن ابن القلانسي: الذيل ص٣٣٩

■ بعلبك تخضع لنور الدين

ثم أخضع نور الدين بعلبك في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[١] ففي هذه السنة ملك نور الدين بعلبك، وكانت بيد الضحاك بن جندل البقاعي، الذي كان تابعـًا لأتابكة دمشق[٢]، وكان قد ولَّاه إياها صاحب دمشق، بعدما تسلمها من نائب عماد الدين زنكي، نجم الدين أيوب في بعلبك، فلما مَلكَ نور الدين دمشق امتنع الضحاك بها، فلم يتمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها[٣].

ويبدو أن البقاعي كان ذا نزعات استقلالية، فطمع في الانفصال عن الحكم النوري، ولم يتمكن نور الدين من التصدي له نظراَ لمجاورته أملاك الصليبيين، إذ خشي إن حاصره فيها أن يسلمها إليهم، لكنه بعد ضم دمشق تفرغ لقضية بعلبك، وتمكن من انتزاعها من يد الضحاك[٤].

ورغم أن الأسرة الجندلية التي حكمت بعلبك لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاع بعلبك[٥]، وكان ذلك بعد المهادنة والاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يظهر الضحاك مقاومة، وأجاب أمر نور الدين، وهكذا شهد العام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م تأمينـًا لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعيم

---

(١) يرى أبو شامة أن نور الدين ملكها في عام ٥٥٠هـ. أبو شامة: الروضتين ج ١ ص٢٩٦

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٨

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٠٨

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٢٩٣

(٥) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٨، نقلًا عن ابن القلانسي: الذيل ص١١٧

السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيئًا أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية، ولم يعد البقاع يحوي قوة تمثل موضعًا مضاداً للنفوذ النوري[١].

إزاء كل هذه التطورات، لابد أن نتعرف على ردة فعل الصليبيين بعد نجاحات نور الدين، ولكن قبل ذلك فإن الأمة الإسلامية أصيبت بغمة كبيرة، كادت تقضي على كل النجاحات السابقة، وهذا ما سنتعرف عليه في الباب التالي:

***

(١) الصلابي: المصدر نفسه ص٤٥٨، نقلًا عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص١١٨

الباب الرابع

غمة تصيب المسلمين

■ الفصل الأول: مرض نور الدين وشفاؤه

الفصل الأول

مرض نور الدين وشفاؤه

بعد الانتصارات المتتالية التي حققها نور الدين زنكي على حساب الصليبيين، وكان أبرزها فتح دمشق، اتخذ الصليبيون خطوة مهمة حيث قاموا بتوحيد صفوفهم، وقام كل من ملك بيت المقدس بلدوين الثالث، وأمير أنطاكية رينولد، وأمير طرابلس ريموند الثالث بحشد جيوشهم، وهاجموا قلعة الروج فأسرع نور الدين بقواته إلى إنب لمواجهة الهجوم، وفي سرمين التابعة لحلب داهمه مرض خطير أشرف بسببه على الموت، فأصر على أن يُحمل في محفة إلى حلب، وهو أقرب إلى الموت وذلك في رمضان ٥٥٢هـ/ أكتوبر ١١٥٧م، وهناك وضع وصيته التي تقضي بأن يخلفه أخوه نصرة الدين في بادئ الأمر، على أن يتولى أسد الدين شيركوه حكومة دمشق تحت سيادته(١).

انتشر خبر مرض نور الدين كالنار في الهشيم، ففي الوقت الذي أصاب فيه الذعر المسلمين، فإنه كان بلسماً على جراح الصليبيين، فقد هللوا وفرحوا كثيراً، بعدما اعتقدوا أن خصمهم القوي قد مات فعلاً، وأن الوحدة الإسلامية لن تلبث أن تنقضم عراها، لهذا حرص بلدوين على القضاء على جميع انجازات نور الدين(٢).

ووصف أبو شامة حال المسلمين بعدما تعرض نور الدين للمرض بقوله: «وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوته، ووقع الإرجاف به من حُساد دولته، والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان

---

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٠١

(٢) طقوش: المصدر نفسه ص٣٠١

الأجناد، وضاقت صدور قُطَّان[١] الثغور والبلد خوفـًا عليه، وإشفاقـًا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج... ولما أحس من نفسهبالضعف تقدم إلى خواص أصحابه، وقال لهم: إنني قد عزمتُ على وصية إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن سيكون من بعدي من الولاة الجاهلين، والظلمة الجائرين، فإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قطب الدين مودود، متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد، ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له»[٢]. رغم أن نور الدين أوصى في بادئ الأمر إلى أخيه نصرة الدين ليكون خليفته من بعده، إلا أن العلاقة بينهما تدهورت فيما بعد[٣].

وبعث إلى قطب الدين رسالة يطلب منه الحضور، ويخبره باتفاق الأمراء عليه، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه قادمـًا إلى الموصل وصلته الأخبار بتحسن حال أخيه، فتوقف في مكانه، وبعث وزيره إلى حلب ليخبر أخاه أنه على استعداد لوضع إمكاناته تحت تصرفه وفي خدمته، فاطمأن نور الدين لموقف أخيه ومشاعره الطيبة[٤].

يروي ابن الأثير حادثة تؤكد أن نور الدين قد اقترب من نهايته، بل إن هذه النهاية أصبحت مجرد وقت، وأن أسد الدين نتيجة لهذا الامر قد طمع بدمشق،

---

(١) قُطان: هم المقيمون، وقيل القاطنتعني المقيم بالمكان. والقَطِين: تُبّعالرجل ومماليكه وخدمه، وجمعها القُطان، وقيل القطين تعني المقيمون في الدار لا يكادون يبرحونه. ابن منظور: لسان العرب ج ٩ ص٤٢٦

(٢) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٣٣٩

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٨

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص١٨١-١٨٢

حيث قال: «كان أسد الدين شيركوه بحمص، فبلغه خبر موت نور الدين، فسار إلى دمشق ليتغلب عليها، وبها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك وقال: أهلكتنا، والمصلحة أن تعود إلى حلب، فإن كان نور الدين حياً خدمتَه في هذا الوقت، وإن كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها»[١].

ويبرئ د.حسينمؤنس أسد الدين من هذه الأفعالبقوله: «..ولكن سيرة شيركوه تؤكد أنه لم يكن من أصحاب المطامع، وإنما هو رجل مجاهد آمن بفكرة ومضى لتحقيقها»[٢].

ومن جانبه يقول وليم الصوري: «وصل رسول إلى الملك يحمل أكثر الأخبار استساغة، وأكثر صحة، وهو أن نور الدين أقوى أعدائنا، الذي كان قد خيَّم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب قد توفي، أو كان متمدداً وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه»[٣]... ولقد تحققت صحة الرواية التي نقلها الرسول، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جداً، وأصبحت صفوفه غير منتظمة، وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه على حمالة إلى مدينة حلب، بعدما أصبح عاجزاً عن التحرك جسدياً وضعيفاً تماماً»[٤].

نتيجة لما حدث وبسبب انشغال الجميع بهذا الأمر الجلل، استولى الصليبيون على قلعة شيزر الواقعة على نهر العاصي، في رجب ٥٥٢هـ/ أغسطس ١١٥٧م، واستولوا على المدينة في رمضان ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، وأذعنت حارم لهم في محرم ٥٥٣هـ/ فبراير ١١٥٨م.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٧١٥

(٢) مؤنس: نور الدين محمود ص٣١٥

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٥٢

(٤) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٨٥٢

وأغار بلدوين الثالث على إقليم دمشق في صفر ٥٥٣هـ/ مارس ١١٥٨م، ثم زحف على دمشق نفسها.

في أثناء ذلك شفي نور الدين من مرضه، واتجه إلى دمشق، فابتهج أهلها بسماع هذا الخبر، وانسحب بلدوين الثالث، وهاجم نور الدين ممتلكات الصليبيين، فأمر قائده أسد الدين شيركوه بالإغارة على صيدا في ربيع الآخر/ مايو، بينما هاجم هو قلعة الحبيس جلدك[١]، التي شيدها الصليبيون وجعلوها معقلاً لهم على ضفاف نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من بحيرة الخليل[٢].

وكان نصرة الدين أمير أميران[٣] مع نور الدين في حلب، فلما مرض الملك العادل، جمع نصرة الدين الناس إليه وحاصر قلعة حلب، وبعد أن علم بشفاء نور الدين اتجه إلى حران[٤].

وقرر نور الدين إخضاعها لسيادته نهائيـاً، وإقصاء أخيه عنها، بعد أن أصبحت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين، الذي تطلَّع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، لذلك اغتنم فرصة مرض أخيه، ليستولي على السلطة، وتمكَّن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة، غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مثَّل أهم عوامل فشل المحاولة، وحاصر

(١) الحبيس جلدك أو حبيس جلداك: هو معقل وكهف حصين يقع جنوب نهر اليرموك، ويضمن السيادة الصليبية على جلعاد في الشمال، وحماية الأملاك الصليبية في الحولان والطرق المؤدية إلى وادي اليرموك، والتحكم في نهر اليرموك نفسه. محمد: صفاء عثمان: مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني ص٢٣٧

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٠٣، نقلًا عن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٥٦٦، بحيرة الخليل: أي طبرية

(٣) نصرة الدين أمير أميران: توفي عام ٥٦٠هـ وكان أميراً شجاعـاً مقدامـاً عزيزاً على أخيه نور الدين محمود، وعظم مصابه عليه. ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٦٧

(٤) ابن الأثير: الكامل ص١٧١٥

نور الدين حران لمدة شهرين وأسقطها ولاذ نصرة الدين بالفرار[١]، فملكها نور الدين، وسلمها إلى زين الدين علي نائب أخيه قطب الدين[٢].

ولاشك أن الاستيلاء على حران، دعَّم قبضة الدولة النورية على مناطق الجزيرة. ولم يكتف نور الدين بما حققه من إنجازات، وإنما سار إلى قلعة حارمفي العام ٥٥٧هـ وهي من أمنع القلاع، وحاصرها، وعندما أدرك الصليبيون قوة نور الدين عرضوا عليه حصة من أعمال حارم، لكنه اشترط عليهم النصف، فوافقوا وصالحهم ثم عاد إلى بلاده[٣].

وبعد عامين أي في رمضان ٥٥٩هـ فتح نور الدين حارم، وملكها من الفرنج.

وكان نور الدين تعرض لهزيمة أمام الصليبيين عند البقيعة تحت قلعة الأكراد[٤]، فأقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد، والأخذ بثأره، وغزو العدو في عقر داره، فراسل أخاه قطب الدين مودود بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ونجم الدين ألبي بن تمارتاش بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف.

أما قطب الدين فإنه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان، فقد قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال على القعود، فإن نور الدين تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، فكلهم وافقه على ذلك.

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٨-٤٥٩

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٧١٥

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٠٩

(٤) ابن الأثير: حاشية الباهر ص١٢٢

فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا [١] فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها[٢] فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إنلم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقى المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل، والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنوني ويدعون علي، فلابد من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

أما نجم الدين فإنه سيَّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، ورغم أن الفرنج جاؤوا في حدهم وحديدهم وعدهم وعديدهم وقضهم وقضيضهم، وملوكهم وفرسانهم، وأساقفهم ورهبانهم، فهم لكثرتهم من كل حدب ينسلون، إلا أن العساكر الإسلامية انقضت عليهم انقضاض الصقور على إناث الطيور، فمزقوهم بدداً[٣] وجعلوهم طرائق قدداً[٤].

---

(١) ما عدا مما بدا: قيل ما بدا لك مني فصرفك عني، وقيل معنى قوله ما عدا مما بدا، أي: ما عداك مما كان بدا لنا من نصرك أي ما شَغَلك، وقال الأصمعي في قول العامة: ما عدا مَنْ بَدَا، هذا خطأ والصواب: أما عدا مَنْ بدا، على الاستفهام، يقول: ألم يعْدُ الحق من بدأ بالظلم، ولو أراد الإخبار قال: قد عدا مَن بدأنا بالظلم أي قد اعتدى، أو إنما عدا من بدا. ابن منظور: لسان العرب ج٦ ص١٣٩

(٢) لدى ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٩٣ «فلما جاء الغد أمر العسكر أن يتجهز للغزاة، فسألوه عما صدفه عن رأيه»

(٣) بددا: التبديد هو التفريق، والمقصود أي مزقوهم متفرقين في القتل واحداً بعد واحد من التبديد، وتبدد القوم إذا تفرقوا. ابن منظور: لسان العرب ج١ ص٣٤٧

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٢٢-١٢٥

■ وفاة بلدوين الثالث

وفي ٢٠ صفر ٥٥٧هـ/ ١٠ فبراير ١١٦٢م توفي ملك مملكة بيت المقدس بلدوين الثالث[١] قيل أنه تناول أقراصـًا مسمومة، عندما كان في أنطاكية، وقد أصيب بلدوين بعد تناوله الأقراص بحمى وإسهال تطورا إلى مرض سل، وبعدما أدرك أن شدة معاناته من المرض كانت تزداد، غادر أنطاكية إلى طرابلس، وبقي فيها بضعة أشهر، ثم توجه إلى بيروت، وقد توفي فيها عن عمر يناهز الثالثة والثلاثين عامـًا تقريبـًا، ثم نقلت جثته إلى القدس، وقد استمر في الحكم عشرين عامـًا، وأصبح أخوه حاكم يافا وعسقلان عموري[٢] وريثـًا للعرش، لأن بلدوين لم ينجب أطفالاً، وتسمى بـ«عموري الأول».

يقول وليم الصوري: « لقد حزن على موت بلدوين الثالث حتى أعداءه، فعندما اقترح على نور الدين اجتياح منطقة أعدائه، قال: يجب أن نتعاطف مع حزنهم وأن نظهر لهم شفقة لأنهم فقدوا أميراً لا يوجد مثله في باقي أنحاء العالم اليوم»[٣].

ويرى ابن تغري بردي أن سبب وفاته ترجع إلى جرح أصابه في وقعة طبرية[٤].

دخل صاحب حلب نور الدين محمود الموصل في جمادي الأولى ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١١٧١م، وذلك بعد وفاة أخيه قطب الدين مودود في شوال ٥٦٥هـ/ أغسطس ١١٧٠م[٥]وبوفاته انتهت مرحلة مهمة من مراحل التعاون

---

(١) كان بلدوين الثالث أبيض البشرة مشرب الحمرة، لحيته كثيفة شقراء، طويل القامة، متين البناء. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٥٨٣

(٢) عموري الأول: يسميه المؤرخون العرب القدامى أماليك أو أموري

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٧٦-٨٧٧

(٤) ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٠٨

(٥) طقوش: تاريخ الزنكيين ص١٨٥

بين إمارتي الموصل وحلب[١].

فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه،كثير المساعدة له، والانجاد بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف[٢] وبعد أن استلم ابنه سيف الدين غازي الثاني الحكم، تغير الحال، بسبب اغتصاب الأخير السلطة من أخيه عماد الدين بن قطب الدين مودود.

واستطاع نور الدين أن ينتزع نصيبين والخابور والمجدل من إمارة الموصل، وكذلك سنجار، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية، وأعلنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود وضربت السكة باسمه[٣]، واتخذ إجراءات تنفيذية عدة لترتيب أوضاعها منها: أنه أقرَّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر، وأمره بالعودة إليه في تدبير الأمور، وأهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوّجه ابنته، وأبطل المكوس[٤] من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري[٥].

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٦٢

(٢) الصلابي: المصدر نفسه ص ٤٦٢ -٤٦٣، ابن الأثير: الباهر ص١٣٩، طقوش: تاريخ الزنكيين ص١٨٢ - ١٨٣

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٩٢، طقوش: المصدر نفسه ص١٨٥

(٤) المكوس: مفردها مكس وهي ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة في الموانئ. القلقشندي: الأعشى ج١٥ ص٣٢٥

(٥) طقوش: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص١٨٦، لما زار نور الدين الموصل ذكروا له أن في وسط الموصل خربة واسعة يستحسن أن ينشئ عليها جامع، فأشار عليه شيخه عمر المَلا أن يشتريها، فواق نور الدين على هذا، ورأى أن خير من يقوم بمثل هذا العمل الخيري هو شيخه عمر الملا نفسه، ففوض إليه أمر بنائه وأن يشتري ما يجاور الخربة من الدور والحوانيت وأن تؤخذ=

بقي نور الدين في الموصل أربعة وعشرين يومـًا، فلما كانت آخر ليلة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يقول له: «طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال أعداء الله»، فنهض من فوره إلى السفر، واتجه إلى الشام[١].

وفي الوقت الذي ثبّت فيه نور الدين أقدامه في الموصل، كانت تجري أحداث كبيرة في مصر سنتعرف عليها في الباب التالي:

***

= من أصحابها برضاهم بعد أن يدفع إليهم أثمانها، والجامع يقع في محلة حمام المنقوشة، وتسمى محلة الجامع الكبير، وقد هدم هذا الجامع عام ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م وشيد من جديد على أسلوب هندسي رائع، وبقيت مئذنته القديمة وهي مرتفعة ارتفاعـًا يلفت الأنظار لكنها غير مستقيمة. وقال ياقوت الحموي في حديثه عن الموصل: « وسورها يشتمل على جامعين تقام فيهما الجمعة،أحدهما بناه نور الدين محمود، وهو في وسط السوق، ووصفه أبو شامه «إليه النهاية في الحسن والإتقان»، أما بناء الجامع الحالي فإنه حديث العهد، لم يحتفظا بأكثر آثاره النفيسة، فبعضها نقل إلى المتحف العراقي في بغداد وبعضها تلف، وبعضها احتفظ به في الجامع. تاريخ الموصل ج١ ص٣٣٥-٣٣٦، أبو شامة: أخبار الروضتين ج١ ص٤٥

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص١٨٣-١٨٥، الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٦٢ -٤٦٥

الباب الخامس

الصراع على مصر

- الفصل الأول: الحملات النورية - الصليبية على مصر

الفصل الأول

النزاعات الداخلية

كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولي عليها، أو يضمها إلى جانبه، في الصراع الدائر بين نور الدين محمود وملك بيت المقدس، إذ أن كلاًّ منهما آثر ألا ينتظر نهاية الدولة الفاطمية، وإنما يبادر لوضع هذه النهاية بنفسه(١).

وكان من الطبيعي أن ينتقل الصراع إلى مصر خصوصاً أنهما يمثلان - أي الدولة النورية ومملكة بيت المقدس- أقوى الأطراف في المنطقة، بل يمكن القول أنه خلال هذه الفترة نشب صراع حتى الموت بينهما(٢)، علاوة على أن الدولة الفاطمية في مصر تعيش أيامها الأخيرة، لهذا سعى كل طرف إلى السيطرة على مصر، بعدما سادت الفوضى هناك، وأصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً(٣)، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء(٤) لاسيما أن الوزراء خلال هذه الفترة كانوا هم القوة المحركة للدولة(٥).

وكانت فكرة استيلاء الصليبيين على مصر تراودهم منذ فترة طويلة، وتحديداً

---

(١) قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص١٣٩

(٢) عطية: حسين، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ص٤٩٨

(٣) بعد اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م لم يكن هناك حاكم قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. قاسم: ماهية الحروب ص١٣٩

(٤) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٣

(٥) سعيد: الجبهة الإسلامية ص٢٠٦، ومنذ وزارة بدر الجمالي صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيديهم، كما توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور. قاسم: ماهية الحروب ص١٣٨-١٣٩

قبل احتلال القدس، إذ يقول المؤرخ ريمونداجيل: «.. ولما كانت الرملة تبعد ١٥ ميلاً عن بيت المقدس، فقد عقدنا مجلساً هناك، وقال البعض: «أجلوا الزحف الآن وتحولوا على مصر، وإذا استطعنا أن نفتح مصر، فإننا لن نكسب بيت المقدس فقط، بل أيضا الإسكندرية والقاهرة وممالك كثيرة»[١]، إلا أن اقتراح المجموعة الأخرى الخاص بالاتجاه إلى بيت المقدس أولاً هو الذي أُخذ به».

■ حملتان لملك بيت المقدس

قاد صليبيو بيت المقدس خمس حملات على مصر بغية السيطرة عليها وأخذ ثرواتها وتحويلها إلى إمارة صليبية، كان ذلك ما بين أعوام ١١٦٠م وحتى ١١٦٩م، إلا ان جميع تلك الحملات لم تحقق الهدف المنشود، وهذا ليس مرده الخلافة الفاطمية التي كانت مهيمنة على مصر، إذ أنها كانت تعيش في أيامها الأخيرة، وإنما لوجود القوات النورية التي كانت تعيش في أوج مجدها وقوتها، وكانت تدافع عن أراضي المسلمين، ووقفت سداً منيعاً للصليبيين الذين كانوا يسعون لابتلاع الدول الإسلامية بدعم من الغرب الأوروبي، لهذا لا يمكن لأي شخص أن يجهل دور نور الدين زنكي في هذه المرحلة الحساسة.

كما أن نور الدين وجه نحو ثلاث حملات إلى مصر للدفاع عن أرضها أو الاستيلاء عليها، ليس هدفه من ذلك حب السيطرة والتوسع، وإنما لخشيته أن تقع في حضن الصليبيين، ناهيك عن الصراع المستمر بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وفي ما يلي تفاصيل الحملات الصليبية والنورية:

■ الحملة الأولى لبلدوين:

كان بلدوين الثالث قبل وفاته قد هدد بغزو مصر عام ١١٦٠م منتهزاً فرصة

---

(١) ريمونداجيل: ترجمة جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الفرنج غزاة بيت المقدس ص٢٢-٢٢٦

الفوضى التي عمت هناك بعد مقتل الخليفة الفائز، إلا أن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها ١٦٠ ألف دينار[١].

■ الحملة الثانية لعموري الأول:

عندما عجز المصريون عن دفع الجزية السنوية حسب الاتفاق الذي كانوا عقدوه مع بلدوين، قاد أخوه عموري الأول حملة على مصر في بداية اعتلائه العرش، في ٥٥٨هـ/ سبتمبر١١٦٣م، واتجه به إلى ضرغام الذي كان وقتها المتحكم بمصر[٢]، لكن الحملة فشلت[٣]، بينما يرى وليم الصوري أن «هذه الحملة حققت أهدافها، وأن الملك عاد منها منتصراً وأنجزها بنجاح»[٤].

ويبدو أن ضرغاماً استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه في الأراضي ليجبر عموري الأول على الانسحاب[٥]بعد أن عبر برزخ السويس، وقيل إن المصريين حفروا الخنادق وأجبروه على الانسحاب[٦].

ومهما كان مآل هذه الحملة فإن عموري الأول استفاد منها بأن اطلع عن قرب على مدى الضعف الذي تعانيه مصر في عهد الدولة الفاطمية، وعظيم ثرواتها وسهولة الاستيلاء عليها[٧]، وهذا ما كتبه عموري إلى لويس السابع ملك

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٣٩

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٨٤

(٣) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٦.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٨٥

(٥) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٣٩

(٦) الجنزوري: علية عبد السميع، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى ص١١٥

(٧) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٣٩

فرنسا، ما جعل عموري يستعد لغزوة كبرى تمكِّنه من وضع يده على مصر[(١)].

■ الحملة الأولى لنور الدين:

بعد القتال الذي جرى بين ضرغام وشاور السعدي وانتهى بانتصار الأول، وصل شاور إلى دمشق في ربيع الأول ٥٥٩هـ، واستنجد بنور الدين محمود، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، وطلب شاور منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها [(٢)]، فوجد نور الدين الفرصة مواتية لتوحيد بلاد الشام ومصر، ووعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له:

- بثلث دخل البلاد المصرية سنويـًا، بعد دفع رواتب الجند.
- أن يكون نائبـًا عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه.
- يكون أسد الدين شيركوه مقيمـًا بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين[(٣)].

وذكر النويري لما قدم شاور إلى نور الدين واجتمع به: «حسَّن له أن يجهز معه جيشـًا يفتح به مصر، ووصفها له، ورغَّبه بها، والتزم أنه يحمل خزائنها إليه يستعين بها على قتال الفرنج»[(٤)].

كان نور الدين متردداً في بادئ الأمر، وكان يُقدم رِجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية لقصد شاور بابه، وطلب الزيادة في المُلك، والتقوِّي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنج فيه، وتخوف أنَّ شاور إن استقرت قاعدته

(١) الجنزوري: هجمات الروم ص١١٥

(٢) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٣٥٦

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٧ - ١٧٢٨، الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٤

(٤) النويري: شهاب الدين عبد الوهاب، نهاية الأرب ج٢٨ ص٣٣٢

ربما لا يفي»[١]. ثم حسم نور الدين أمره وقوى عزمه على إرسال الجيوش، وجهز في جمادي الآخرة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م حملة إلى مصر بقيادة شيركوه، قضاء لِحق الوافد المستصرخ وتطلعـاً لأحوالها[٢]، وكان هوى شيركوه في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة[٣]، يصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان في السابعة والعشرين من عمره[٤].

عندما علم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، احتاط للأمر، واستنجد بملك بيت المقدس عموري الأول، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود، وتعهد له بالمقابل أن:

- يدفع جزية سنوية يقررها الملك.
- وأن تدخل مصر في تبعية الصليبيين.

وأجبر ضرغام الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول - الذي تسلم حكم بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث في ٥٥٨هـ/ فبراير ١١٦٣م - هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر[٥].

وبعد أن توصل ضرغام وعموري إلى اتفاق مرضٍ، وقبل أن تتمكن رسل

(١) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

(٢) ابن شداد: أبو المحاسن بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٣٦، ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٢١

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص ٣٢٨، الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٤

(٥) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٤

ضرغام من العودة إلى مصر[١] كان الوضع أصبح مختلفاً، إذ أن مهارة القائد الكردي شيركوه وإسراعه في قطع الصحراء رغم كبر سنه جعلته يكسب قصب السكر فوصل الدلتا قبل الصليبيين[٢].

فقد سار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك، ثم أيلة، فالسويس، ومنها إلى القاهرة، وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخيه ناصر الدين، وتمكن أسد الدين شيركوه من سحقها، وفي أواخر جمادي الآخر وصل شيركوه إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة، واستطاع شيركوه الانتصار عليه، بعد أن تخلى الناس والجيش والخليفة عن ضرغام، وقتل الأخير[٣] أثناء محاولته الفرار في رجب ٥٥٩هـ/ يونيو ١١٦٤م، كما قتل أخوه ناصر الدين، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً.

وأعاد شيركوه شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[٤]، وعرف شيركوه أحوال مصر، وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد، وعرف أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال[٥].

---

(١) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٨٨٦

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٤٠

(٣) يرى المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن ضرغاماً قتل بسهم أطلق من يد أحد جنوده. الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٨٧، بينما يرى المقريزي أن مقتل ضرغام كان على يد بعض الشاميين في غلمان شاور الذين طعنوه واحتزوا رأسه. قاسم: قاسم عبده، حاشية في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢١

(٤) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٤٥ نقلًا عن طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٢٩ .

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ص٣٦

ولا شك أن شاور دخل القاهرة مزهواً بهذا الانتصار، كيف لا وقد عاد إلى منصبه وقضى على خصمه نهائياً بعدما قُتل ولم يعد له وجود.

كان شاور بين أمرين: إما أن يفي بوعده لنور الدين، وهذا يعني أن وجوده في مصر سيكون ثانوياً في ظل وجود شيركوه، أو يتخلى عن اتفاقه، ومن ثم عليه أن يواجه عاقبة الأمور، وهو يعرف أن العاقبة ستكون وخيمة، ولكن من كان طبعه الغدر، يمكنه تكرار غدره للتملص من أي اتفاق.

لهذا ما إن تمكن شاور من الوزارة حتى تنكر لعهده ونقض كل اتفاقه مع نور الدين، بل لم يكتف بذلك، وإنما طلب من شيركوه الرحيل عن مصر، وهدده بالصليبيين[١]،فلم يجبه أسد الدين، وكرر مطالبه بضرورة أن يدفع ما عليه من أموال.

حاول شيركوه مراراً وتكراراً أن يجبر شاور على الالتزام بالاتفاق الذي قطعه على نفسه مع نور الدين، حاول أن يثنيه عن قراره، وأن يجعله يعود إلى جادة الصواب، ولما لم يجدشيركوه أذناً صاغية منه قرر أن يستولي على بلبيس[٢] ويحكم البلاد الشرقية، بعدما أرسل نوابه إليها[٣].

ويرى ابن تغردي بردي أن صلاح الدين هو الذي أشار على عمه أسد الدين شيركوه بالتوجه إلى بلبيس، وكان شيركوه لا يقطع أمراً دون صلاح الدين[٤]، لعلمه بأنه يملك عقلاً راجحاً، ورأياً صائباً.

---

(١) الغامدي: الجهاد ص٣٠١

(٢) بلبيس: مدينة فتحت عام ١٨ أو ١٩ هـ. على يد عمرو بن العاص. الحموي: معجم البلدان ج١ ص٤٧٩

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨، الغامدي: الجهاد ص٣٠١

(٤) ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٤٧

وتأتي فكرة الاستيلاء على بلبيس بالذات، كي تكون بمثابة ورقة رابحة للمساومة السياسية بها، ففي حال تراجع شاور عن موقفه المتعنت يتم الانسحاب منها لتحقيق خطوة أكبر في طريق السيطرة على البلاد، وأيضـًا لدوافع استراتيجية إذ أنها مثَّلت المدخل الشرقي لعاصمة الخلافة الفاطمية [١].

ولما علم شاور بالخطوة التي قام بها أسد الدين شيركوه، أدرك أنه لن يستطيع إخراج شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي من بلبيس إلا بمساعدة الصليبيين[٢]، لهذا استنجد شاور بالملك عموري وخوَّفه من نور الدين إن هو مَلَك مصر[٣].

وكان شاور بدافعٍ من حرصه على الحكم والأنانية السياسية التي أعمته عن مصالح البلاد والعباد قد بحث عن حليف يساعده في محاربة حليفه القديم الذي صار له غريمـًا»[٤]، فمن يمكن أن يكون حليفه ويعاونه ضد القوات الشامية غير القوات الصليبية؟.

لهذا كان من الطبيعي أن يقدِّم شاور عرضـًا كبيراً لعموري كي يغريه بالحضور إلى مصر.

وقال ابن واصل عن ذلك: «..ولما وصلتهم - أي الصليبيين - رسل شاور يدعوهم إلى مساعدتهم سرَّوا بذلك وبادروا إليه»[٥]. وجاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في ملك الديار المصرية»[٦].

---

(١) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩١
(٢) الغامدي: الجهاد ص٣٠١
(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨
(٤) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢١
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٣٩
(٦) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

■ **وعرض شاور على عموري أن:**

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها ٢٧ مرحلة.
- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الإسبتارية[١] الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.
- يتكفل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[٢].

بهذا يمكن القول أن الصراع بين نور الدين والصليبيين انتقل من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد، هو شرق دلتا النيل بطول المسافة من الفرما قرب بور سعيد الحالية حتى القاهرة[٣].

■ **الحملة الثالثة لملك بيت المقدس**

زحف ملك بيت المقدس عموري الأول إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية، في رمضان ٥٥٩هـ / أغسطس ١١٦٤م [٤] (المرة الأولى بقيادة أخيه

---

(١) الإسبتارية: تحريف للفظ أجنبي hospitalliers وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديراً في بيت المقدس، بجوار دير سان ماري، وقد أقيم بجواره بيمارستان "مستشفى" في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم، ولما اندلعت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في الحرب ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات، وكانوا موضع احترام غودفري ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم الأموال، ثم أصبحوا يؤلفون قوة حربية كبرى، واشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. طقوش: حاشية تاريخ الزنكيين ص١٨١

(٢) طقوش: المصدر نفسه ص٣٣٠

(٣) قاسم: ماهية الحروب ص١٤١

(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٣١

بلدوين) بعدما وافق على العرض السخي الذي قدمه شاور، ولما علم نور الدين بذلك سار بعسكره إلى طرف بلاد الفرنج ليمنعهم من المسير[١]، إلا أنهم لم يمتنعوا، لأنهم أدركوا أن الخطر إذا مَلَك شيركوه مصر أشد من الخطر في امتناعهم عن المسير، فتركوا في بلادهم من يحفظها وأكمل عموري طريقه إلى مصر[٢].

عندما قدم شيركوه إلى مصر لم يكن همه الأساسي إعادة شاور إلى منصبه الذي اغتصبه منه ضرغام، رغم أن شاور وعد نور الدين بأن يجزل له العطايا، وعندما قدم عموري الأول إلى مصر لطرد شيركوه من بلبيس لم يكن هذا هو الهدف الأسمى له، رغم الأموال الكثيرة التي أعطيت وسوف تعطى له، لكن الطرفين - القوات الزنكية والقوات الصليبية - ترى أن الجائزة الكبرى هى مصر أرض الخيرات والمال والعتاد والرجال، فمن يملكها سوف تكون له القوة لسنوات طويلة، وسوف يكون هو السيد الأوحد في المنطقة رغم أنف الجميع.

هذا هو المنطق السليم والصحيح لمسار الأحداث، فلم تكن الأمور معلقة بأموال وعطايا يجزلها لهم شاور، أو حتى بلبيس كما يريد أن يقول وليم الصوري، خصوصاً في ظل ترنح الخلافة الفاطمية، وضعفها الشديد بسبب تصارع الوزراء وتقاتلهم من أجل مآرب شخصية.

في ظل تلك الأوضاع كان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم عموري[٣]، وعند وصوله إلى فاقوس

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٤٠

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٢١، ابن العديم: الزبدة ج٢ ص٤٩٢-٤٩٣

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٤٠، ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

اتصل بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه الذي قوى في بلبيس بعدما حصل على مساعدات من عرب كنانة[١].

أحاطت القوات الصليبية والمصرية ببلبيس من كل جانب، وفرضوا عليها حصاراً شديداً مدة ثلاثة أشهر، وأسد الدين شيركوه ممتنع بها، مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق، ولا فصيل[٢] يحميها، وهو يغاديهم بالقتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضـًا ولا نالوا منه شيئـًا[٣].

كانت تلك الأخبار تتناهى إلى مسامع نور الدين القائد الذكي الذي يعرف متى يتحرك، وكيف يرفع الحصار عن قوات أسد الدين، فهو لم يقف موقف المتفرج وإنما قاد هجومـًا على قلعة حارم واستولى عليها.

قاد نور الدين جيشه إلى بانياس[٤] وكان ذلك عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م وتمكَّن من استعادة القلعة التي أخذها منه بلدوين الثالث، وسار معه أخوه نصرة الدين أمير أميران بعدما عفى عنه، إذ أنه أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية رغم ما حدث، فتحسنت العلاقة بينهما، بعد انقشاع سحب النزاع السابق، فأصيبت إحدى عيني نصرة الدين بسهم، فقال له نور الدين: « لو كُشِف لك الأمر الذي أُعِدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى»[٥].

وكانت بانياس تابعة لمملكة بيت المقدس منذ عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وهي قلعة حصينة منيعة، وتعد أحد مفاتيح الطريق إلى مصر، ومع حرص نور

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٤١

(٢) الفصيل: حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد. أبو شامة: الروضتين ج١ ص٣٥٩

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

(٤) الغامدي: الجهاد ص٣٠١

(٥) ابن الأثير: الباهر ص١٣٠-١٣١

الدين على مواصلة جهوده الرامية إلى تخفيف الضغط على الجبهة المصرية قرر فتح بانياس، وكان صاحبها همفري الثاني نورون يرافق عموري الأول في حملته على مصر مصطحباً معظم قواته[١].

وخلال ذلك الحصار بلغ عموري الأول انتصارات نور الدين في الشام، لهذا أراد العودة إلى بلاده لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لاسيما أنه أدرك أيضاً أن مصير حملته الفشل في ظل امتناع أسد الدين في بلبيس، فدخل في مفاوضات مع شيركوه للجلاء المزدوج عن مصر[٢].

ويبدو أن أسد الدين شيركوه لم يكن يعلم بما آلت إليه الأمور في الشام[٣]، كما أن موقفه كان صعباً، فالمؤن بدأت بالنفاد، فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد، علاوة على أن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك قَبِل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[٤].

وقال ابن تغري بردي عبارة مقتضبة: « حتى صالحهم شيركوه على مال»[٥]، وقيل أن الفرنج أعطوه ثلاثين ألف دينار[٦].

ولاشك أن تلك الأموال قد عوضت بعض نفقات الجيش النوري في حملته الأولى على مصر، كما زادت من أطماع شيركوه في خيراتها، كما أن ذلك المبلغ دلَّ بوضوح على حرص شاور على إبعاد الخطر النوري عن البلاد بأي ثمن»[٧].

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٣٦
(٢) طقوش: المصدر نفسه ص٣٣١
(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٢٢
(٤) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٣١
(٥) ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٤٧
(٦) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩٢
(٧) عوض: المصدر نفسه ص٩٣

اتفق الرجلان شيركوه وعموري الأول على الخروج من مصر في ذي الحجة/ أكتوبر، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم.

* **ولا يختلف اثنان على أن شاور حقق مكاسب عدة من هذا الحدث منها أنه:**

- تخلص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية.
- تخلص من ضرغام.
- أضحى شاور طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكم في مقاليد البلاد.

رحل أسد الدين عن مصر في ٧ ذي الحجة، فأقام في الشام مُدبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدثاً بذلك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين(١).

ورغم انسحاب الجيش النوري من الجبهة الجنوبية إلا أنه حقق بعض المكاسب المهمة، تمثلت في استطلاعه لأوضاع مصر السياسية والعسكرية والاقتصادية، كما درس شيركوه عن كثب المواقع التي مر بها والتي سيتكرر الصراع حولها (٢).

■ الحملة الثانية لنور الدين

المثير في الأمر أن جميع الأطراف قد سعت إلى تجاهل ذلك الاتفاق، إذ أن أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي عادا إلى الشام بنية الإعداد لحملة جديدة تعيدهم إلى مصر، وثابر شيركوه على محاولاته لإقناع نور الدين

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج١ ص٣٦١

(٢) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩٣

محمود بأهمية مصر العسكرية والسياسية في الصراع مع الصليبيين[١].

وكان شيركوه بعد رجوعه من مصر[٢]، لا يزال يُحدِّث نفسه بقصدها ومعادوتها، حريصاً على الدخول إليها، يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العودة زيادة حقده على شاور وما عمل معه[٣]. كما أن شيركوه أدرك بثاقب بصيرته أن مصر هي التي سوف تحدد مصير المعركة ضد الفرنج، بل مصير المسلمين كلهم في هذه الأرض. فقدأدرك مدى ثراء البلاد وضعفها، كما أنه حنق على شاور وغدْره في الحملة الأولى، وأقنع نور الدين بأهمية توجيه حملة جديدة على مصر»[٤].

لهذا أعد نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في ربيع الأول ٥٦٢هـ/ يناير ١١٦٧م بقيادة أسد الدين شيركوهو صحبه ابن أخيه صلاح الدين على كُرهٍ منه، وسيَّر معه جماعة من الأمراء، بمباركة الخليفة العباسي، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[٥].

وقد أرجع ابن واصل السبب في موافقة نور الدين على تسيير جيش إلى مصر، إلى أنه قد ثبت في نفسه غدر شاور به، ورجوعه عما كان وقع من العهد والاتفاق عليه[٦] وربما سكون هذا السبب كافياً لنور الدين كي يقنع به الشعب المصري بضرورة التحرك نحو بلادهم وانقاذهم من المصير المظلم الذي ينتظرهم، في حال وقعت بلادهم بيد الصليبيين.

---

(١) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٢

(٢) كان ذلك في ٩ ربيع الآخر ٥٦٢هـ. أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٧

(٣) أبو شامة: المصدر نفسه ج٢ ص٧

(٤) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩٣

(٥) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٢

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٤٨

استمرت الأقاويل في الانتشار ومفادها أن شيركوه المجهز بشكل جيد بالطعام الضروري لأيام كثيرة وبكميات وفيرة من الماء المنقول بالقِرَب، قد بدأ مسيرته عبر الصحراء، لذلك جهز عموري جميع قواته المتوافرة من الفرسان وانطلق بسرعة لمقاتلة شيركوه وإعاقة تقدمه، إلا أنه عاد على الفور من حيث أتى لأنه لم يجد شيئاً[١].

وخلال الطريق تعرض الجيش النوري لعاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد، ورغم ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر، ووصل الجيش سالماً إلى برزخ السويس في ربيع الآخر / أوائل فبراير[٢].

■ الحملة الرابعة لملك بيت المقدس

أمام تلك التطورات الجديدة، عاد شاور إلى سيرته الأولى واستنجد مجدداً بعموري الأول، الذي رحب بالدعوة طمعاً في امتلاك مصر، وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[٣].

خرج عموري الأول من بيت المقدس في ربيع الأول ٥٦٢هـ / يناير ١١٦٧م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة[٤] إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس[٥].

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٩٥

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٢

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٤٩

(٤) غزة: مدينة من نواحي فلسطين غربي عسقلان، وفيها مات هاشم بن عبد مناف جد الرسول وبها قبره، لذلك يقال لها غزة هاشم، وبها ولد الإمام الشافعي. الحموي: معجم البلدان ج٤ ص ٢٠٢

(٥) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٤

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب[١] والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في مُلك مصر على الجد والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري، فجدوا على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي[٢].

واستقبل شاور الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة، وأجرى مع شاور مباحثات وتم الاتفاق على مايلي:

- أن تدفع مصر أربعمائة ألف دينار للصليبيين.
- أن يدفع نصف هذا المبلغ على الفور.
- ارسال المبلغ المتبقي في وقت محدد متفق عليه من دون إثارة أي متاعب.
- أن يضمن الملك عموري بسلطته وبنية حسنة ودون خداع أو نية شريرة أنه لن يرحل عن أرض مصر حتى تتم إبادة شيركوه وسائر جيشه عن بكرة أبيه، أو يُطرد بالكامل وأتباعه من الأراضي التابعة لمصر[٣].

■ معركة البابين

سار أسد الدين وجيشه البالغ ألفي جندي إلى الصعيد في مكان يُعرف بـ«البابَيْن»[٤]،

(١) الصعب: خلاف السهل، نقيض الذلول، من الدواب، وفي حديث ابن عباس قال: «فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ إلا ما نعرف أي شدائد الأمور وسهولها». وأصعب الجمل أي لم يركبه قط. ابن منظور: لسان العرب ج٥ ص٣٣١

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٣٢، أبو شامة: الروضتين ح٢ ص٧

(٣) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٣، الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٨٩٩

(٤) البابين: قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا في مصر. ابن واصل: حاشية مفرج الكروب ج١ ص١٥٠

ولحقته العساكر المصرية والفرنج، البالغ عددهم عشرات الألوف.

وكان أسد الدين قد أرسل جواسيسه إليهم، وأخبروه بكثرة عدد العدو وجدهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحْكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر.

وبعدما استشار أصحابه قالوا له: «إن نحن انهزمنا، وهو الذي لا شك فيه، فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار جندي وعامي وفلاح عدو لنا، ويودون لو شربوا دماءنا، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعدتْ ديارهم ونأى ناصرهم، أن ترتاع من لقاء عشرات ألوف مع أن كل أهل البلاد عدو لهم»[١].

لكن أحد مماليك نور الدين ويدعى شرف الدين برغش قال لأسد الدين شيركوه: «من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحـًا أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتُسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار؟!. فقال أسد الدين: «هذا رأي وبه أعمل»، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال[٢].

وفي الوقت نفسه بعث أسد الدين شيركوه رسالة إلى شاور قال فيها: «أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر، ولا أعاود إليها أبداً، ولا أُمُكِّن أحداً من التعرض إليها،

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٣٢

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٣٣

ومن عارضك فيها كنتُ معك، وما أريدُ منك إلا نصرة الإسلام فقط، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيه هذه الفرصة التي أمكنت والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أنه يعود ويتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً»، لكن شاور أبلغ الصليبيين بالرسالة، وأكد لهم إخلاصه وتفانيه في خدمتهم[1].

فقد أدرك شيركوه أن هذه الفرصة لا يُمكن أن تُعوَّض، ومن ثم من الأجدر الاتفاق مع شاور للقضاء على الجيش الصليبي، خصوصاً أنه بعيد عن بلاده، والقضاء عليه أسهل من أي وقت مضى لو أخلص الجميع للقضية الإسلامية.

ومع هذا فإن رد شاور على رسالة أسد الدين شيركوه كان يتفق مع شخصيته، فهو يرى مصلحته الذاتية فوق أي مصلحة أخرى، لهذا كان من الطبيعي أن يبلغ الصليبيين بفحوى الرسالة، ويجدد إخلاصه لهم.

فما كان من الجيش النوري سوى البقاء في مكانهم حتى وصل الفرنج والمصريون وهم على تعبئتهم، فجعل أسد الدين الأثقال في القلب، لا ليتكثر بها لأنه لا يمكنه تركها في مكان آخر خوفاً من أن تنهب، وجعل صلاح الدين في القلب[2]، وقال له ولمن معه: « إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا أنفسكم، واندفعوا من بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم».

واختار أسد الدين من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم، ويعرف صبرهم

(١) مؤنس: نور الدين محمود ص٣٠٠

(٢) يرى ابن تغري بري خلاف ذلك فيقول: «ورتب أسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة، وفي الميسرة الأكراد، وأسد الدين في القلب». ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٤٩

في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلما اصطفوا للحرب، حمل الفرنج على القلب، ظناً منهم أنه فيه[١]، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم غير متفرقين، وتبعهم الفرنج، الفارس والراجل، فهزمهم أسد الدين ووضع السيف فيهم، وتمكن من تحقيق الانتصار عليهم[٢].

وكان هذا من أعجب ما يُؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[٣].

كان بإمكان أسد الدين شيركوه أن يحتل القاهرة لو أنه لحِق بالقوات المتحالفة، لكنه اتجه إلى الفيوم، ثم تابع زحفه نحو الإسكندرية التي كانت مركز المعارضة للحكم الفاطمي[٤]، وأناب ابن أخيه صلاح الدين فيها، وقد تلقاه أهلها طائعين وفتحوا له قلبه قبل أبواب المدينة، لأنهم كرهوا شاور واتفاقه وتحالفه مع الصليبيين[٥].

ويرى بعض المؤرخين أن تحرك شيركوه إلى الإسكندرية لم يكن عشوائياً، بل كان بترتيب سابق، فقد كتب شيركوه -قبل معركة البابين- إلى أهل الإسكندرية يستنجد بهم على الفرنج وشاور، فقاموا معه.. بل إن أهل الإسكندرية كتبوا إلى شيركوه أنهم يمدونه بالسلاح وجهزوا إليه خزينة من السلاح»[٦].

وهذا الرأي يوضح السبب الرئيسي لاتجاه شيركوه إلى الاسكندرية،

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٨

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٥١

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٣٣

(٤) الغامدي: الجهاد ص٣٠٥

(٥) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٧

(٦) رمضان: عبد العظيم: تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، ندوة «حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين في الإسكندرية ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م» د. محمود سعيد عمران ص١٤٥

ولم يلحق القوات المحالفة إلى القاهرة، علاوة على ذلك فإن أسد الدين شيركوه الخبير بالحروب يعلم جيداً أن القوات الصليبية والمصرية سوف تقاتل بشراسة هناك، لأنها حينئذ سوف تدافع عن حياتها وبقائها، وقد تتلقى المزيد من المساعدات من الأهالي الذين يمكن لشاور أن يجبرهم بالقوة على الاشتراك معه وقتال شيركوه، ناهيك عن ذلك أن القوات النورية لن تجد أي مساندة أو أي عون فيما يتعلق بالمأكل والشراب وعلف الحيوانات وراحتها، لهذا كان اتجاهه إلى الاسكندرية هو الحل الأمثل لا سيما أنه قد خطط لهذا الأمر قبل معركة البابين.

يقول أبو شامة: «سار أسد الدين إلى ثغر الاسكندرية، وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال، سلمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملَّكه وجبى أمواله»[١]، وقد قام بذلك كي تعينه هذه الأموال على نفقات الحملة واطعام جيشه، خصوصاً أن هذه المعركة قد يطول أمدها.

ويوضح د. محمود سعيد عمران متحدثًا عن وصول القوات النورية إلى الاسكندرية ومعها أسرى الفرنج عقب معركة البابين: «..وعندما وصلوا نزل أسد الدين في القصر ولعله قصر مكين الدولة أبي طالب قاضي الإسكندرية.. وقد اتخذ من هذا القصر مقراً وأودع فيه أسرى الصليبيين»[٢].

وأعاد عموري الأول ترتيب صفوف قواته، وتقوى بما وصل إليه من إمدادات، ولم تمض أيام قليلة حتى ظهر على أبواب الإسكندرية، فحاصرها وشدد الخناق عليها.

(١) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٩

(٢) رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٤٦

وبعد مرور شهر تقريباً، من وجود شيركوه في الإسكندرية، كان عليه أن يتحرك، ويبدو أنه خلال تلك المدة، فكَّر كثيراً بعدما اطمأن لوضع قواته في الاسكندرية، وقرر الخروج وترك مكانه والاتجاه إلى الصعيد، ووجد أن هذا الحل هو الأمثل لمجابهة القوات الصليبية والمصرية.

وترك أسد الدين مع صلاح الدين جماعة من العسكر تقدر بألف فارس، كما ترك أيضا بالإسكندرية من به مرض أو جراح أو ضعف، وزيادة في الاحتياط استحلف شيركوه لصلاح الدين وجوه أهل الإسكندرية وأوصاهم به ورحل في أقوياء عسكره.وعاد أسد الدين إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى شهر رمضان[١].

كان انسحاب شيركوه من الإسكندرية ليلا عبر الصحراء، ورغم أنه مر بالقرب من القوات الصليبية الموجودة بين تروجة ودمنهور، إلا أن الصليبيين لم ينتبهوا إليه، واتجه إلى صعيد مصر، والواضح أن شيركوه لم يبق في مدينة الإسكندرية طويلاً بدليل ما ذكره وليم الصوري أن: « أسد الدين شيركوه عاد إلى الصعيد وهي المنطقة التي أتى منها منذ وقت قريب»[٢].

ويبدو أن أسد الدين رأى أنه من الأفضل ألا يحصر نفسه في مكان ضيق في حال قيام الفرنج والمصريين بالهجوم على المدينة، ومن ثم القضاء عليه بكل يسر وسهولة، ورأى أن موارد الإسكندرية يُمكن أن تنقطع في حال قيام الصليبيين وشاور بحصارها، وهو ما فعلوه بالضبط، عندما حاصر عموري وشاور المدينة براً والأسطول الصليبي بحراً[٣].

---

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٥٠، ابن الأثير: الباهر ص١٣٣

(٢) رمضان:تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٤٨-١٤٩

(٣) الغامدي: الجهاد ص ٣٠٥، أبو شامة: الروضتين ج٢ ص١٢

وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف، ولم تتلق المنطقة خلال ذلك الوقت أي مؤن من الخارج، وبدأ الناس يتذمرون لأن الخبز بدأ ينفد من خزائنهم، ولم تكن لديهم أي مواد غذائية، وعندما علم شيركوه بهذا الأمر، بدا يخشي أن يدفع وجيشه لمكابدة المجاعة مع الباقين»[١].

أما ابن كثير فقال عن هذا الانسحاب: «وعاد -أي أسد الدين شيركوه- إلى الصعيد فملكه، وجمع منه أموالاً جزيلة جداً»[٢]. وهو بذلك يشير إلى أن شيركوه خرج من الإسكندرية إلى الصعيد ليجلب المال ويتقوى به في ظل الظروف الصعبة التي سيتعرض لها جيشه. وهو ما فعله وما جعله يصبر لمدة ثلاثة أشهر، هناك ثم يعود إلى الإسكندرية من جديد.

ووصف وليم الصوري مكان معسكر القوات الصليبية بقوله: «أقام الملك - أي عموري الأول- معسكره بين تروجة ودمنهور، في موقع يقع على بعد نحو ٨ أميال من الإسكندرية، وأرسل الكشافة من هناك لزيارة جميع القرى الواقعة قي المنطقة المجاورة، وتدميرها حتى مع القرى البعيدة جداً في الصحراء، ورغب في أن يمنع وصول أي مساعدة مرسلة إلى المحاصرين، وأن يعترض أيضاً جميع المراسلين المغادرين المدينة لطلب المساعدة من الخارج، وكعائق إضافي منع الأسطول كل مرور في النهر، ولم يسمح لأي واحد مهما كان معروفاً بالنزول دون الخضوع لاستجواب دقيق، وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف، ولم تتلق المنطقة خلال ذلك الوقت أي مؤن من الخارج»[٣].

وهو ما يعني أن القوات الصليبية والمصرية شددت الخناق على الإسكندرية

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩١٤

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٥٥

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩١٤

براً وبحراً وحاصرتها حصاراً شديداً، ومنعت أي طرف من تقديم المساعدة لأهل الإسكندرية، فقد وضعت قوات تستجوب أي شخص يحاول الاقتراب من المدينة، وتمنعه من الدخول إذا كانت هناك شكوك بأنه سوف يمد يد العون لأهلها.

عموماً تمت محاصرة الإسكندرية أربعة أشهر، وتعرض سكانها خلال هذه الفترة إلى الضعف والشدة، ومع ذلك رفضوا التسليم أو الاستعباد، ووقفوا إلى جانب صلاح الدين حتى اللحظات الأخيرة.

وما يؤكد هذا الرأي أن شهاب الدين ذكر ما قاله أهل الإسكندرية لعموري الأول وشاور لما طلب منهم الأخير تسليم صلاح الدين ومن معه ويضع عنهم المكوس بقولهم: «معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية»[١].

أما عن وضع صلاح الدين الذي كان المسؤول الأول عن المدينة فإننا نترك وليم الصوري يصف حاله: «.. وأحس صلاح الدين بحالة الشعور العامة هذه، فأرسل رسلاً سريعين بسرعة قصوى إلى عمه، مع بيان عن الأحوال: الوضع البائس للمدينة، والفقدان التام للمؤن الغذائية، ورغبة الناس بالتخلي عنها، وتوسل إليه بجدية بالغة وبكل حجة ممكنة ليتدبر إرسال نجدة فورية لإسعاف الناس البائسين من الوقوع في خطر وشيك»[٢].

ويبدو أن صلاح الدين طوال مدة حصاره في الإسكندرية لم يتلق أي مساعدة أو نجدات من أي طرف خارجي، سواء من دمشق، أو الصعيد حيث اتجه عمه، وإنما تُرك لمصيره مع الاعتماد على معونات أهالي الإسكندرية، ومعه ألف فارس كما يقول وليم الصوري[٣].

---

(١) النويري: نهاية الأرب ج٢٨ ص٣٣٧

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩١٧

(٣) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٩١٤

ومع كل هذا لم تفتر همة صلاح الدين ومن معه في الدفاع عن المدينة، فقد نجح صلاح الدين في طمأنة أعيان المدينة والشعب السكندري كافة، وأبلغهم بأنه سيدافع عنهم، وعن زوجاتهم، وأولادهم حتى الموت، وحثهم على التمسك والتفاخر بعادات وتقاليد أسلافهم من المسلمين، وطمأنهم بأن عمه أسد الدين شيركوه سوف يصل إلى المدينة عن قريب ومعه عدد كبير من القوات[١].

ومن هنا يمكن أن يتضح لنا حجم المسؤولية الملقاة على عاتق صلاح الدين، والمعاناة التي تكبدها طوال فترة الحصار التي استمرت أربعة أشهر. لاسيما أن عمه ترك معه في الإسكندرية من به مرض أو جراح أو ضعف[٢].

وبالطبع عاد شيركوه من الصعيد بعد أن وصلته رسائل ابن أخيه، وعلم بالوضع السيء الذي بلغته الإسكندرية، وأن أهلها وبسبب الضعف الذي اعتراهم جراء الحصار القوي، والشديد المفروض عليهم، براً، وبحراً، قد يرضخون للصليبيين، ويسلمونهم البلد، لهذا وصل إلى المنطقة، وكان وصوله هذه المرة له أكثر من معنى، فجيشه أخذ قسطاً كبيراً من الراحة، وأصبح مستعداً للقتال، خصوصاً أنه كما قال ابن كثير: جمع أموالاً جزيلة جداً من الصعيد، كما أنه اجتبى مالاً من القوص، وبالتالي توفر له كل ما يحتاجه من مأكل ومشرب لجيشه ومن علف لدوابه، لهذا أصبح وضعه- إن لم يكن أفضل من عدوه الذي يتوافر لديه كل ما يريد- فهو على قدم المساواة معه على أقل تقدير.

وقد اتفقت المصادر على أن الطرفين وقعا معاهدة صلح بينهما، بعدما عاد شيركوه من الصعيد.

ويُعتبر شاور الرابح الأكبر في هذه المعركة، فقد تخلص من الخطر الذي

(١) رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٥٣

(٢) رمضان: المصدر نفسه ص١٤٨

كان يتهدده المتمثل بنور الدين، وأصبح السيد المطلق في مصر والطرف الأقوى الذي لا ينازعه أحد، لاسيما بعد أن حجر على الخليفة الفاطمي العاضد.

وفقاً لتلك الظروف كان من الطبيعي أن يقبل أسد الدين شيركوه وعموري الأول بعقد الصلح على وجه السرعة، ومن دون تردد، وذلك وفق الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- خروج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية[(١)].

■ **الشروط النهائية**

تحددت الشروط النهائية على الشكل التالي :

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر. وكما قال ابن الأثير: «.. وشرط أسد الدين أن الفرنج لا يقيمون بمصر وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين»[(٢)].
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تعهد شاور بألا يعاقب رعاياه في الإسكندرية وغيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[(٣)].

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٩، الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩١٩-٩٢٠

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٣٤

(٣) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٤٩، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٥٢

لذا يمكن القول أن شعب الإسكندرية ساهم في مساندة صلاح الدين بكل شكل من الأشكال حتى صمد داخل المدينة طوال هذه المدة دون أن يستسلم، وأن الموقف كان في صالح صلاح الدين رغم حصاره، أكثر ما كان في صالح القوات الصليبية والقوات الفاطمية، وأن الحصار لم يكن شاملاً لكل أنحاء المدينة، وأن السفن الصليبية التي وفدت إلى شواطئ الإسكندرية لم تستغل عسكرياً على حصار المدينة من جانب البحر، فلم تشر المصادر إلى أي نشاط عسكري قامت به البحرية الصليبية في تلك الأحداث[١].

وفي شوال / ٤ أغسطس دخل عموري الأول الإسكندرية، وفي ذي القعدة / سبتمبر غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل، رغم ما أصاب السكان من ضيق لرحيله، في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور[٢].

ومع استعداد صلاح الدين للرحيل، فإنه لم ينس المرضى والضعفاء من رجاله الذين كانوا بداخل الإسكندرية، فقد طلب من الملك عموري أن يرسل إليه بعض السفن لنقل هؤلاء الجرحى[٣].

وقد تعلَّم عموري من خلال هذه الحملة كيف يحترم رجال نور الدين، ووافق على نقل الجرحى من جيش شيركوه على سفنه إلى عكا، ومنها إلى دمشق[٤].

بعد هذه الأحداث سار الوزير شاور على رأس قواته إلى الإسكندرية في موكب عسكري كبير، ودخلها دخول المنتصرين على أصوات الطبول والمنشدين،

---

(١) رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٥٢

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٥١

(٣) رمضان:تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٥٩ نقلًا عن أبو شامة: الروضتين

(٤) مؤنس: نور الدين محمود ص٣٠٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٦٠٧

وكان دخوله في ١٥ شوال٥٦٢ هـ/ ٤ أغسطس ١١٦٧م، وانزعج السكان لدخول شاور على هذه الصورة خشية معاقبتهم لمساندتهم صلاح الدين.

وفعل شاور ما كان يتخوَّف منه أهل المدينة، فقد قبض على جميع من ساند القوات النورية من أهل مصر، ولما كان ما قام به يعتبر خرقاً للمعاهدة، فقد شق ذلك على صلاح الدين، وأبلغ الأمر إلى الملك عموري الأول الذي طلب من شاور الإفراج عن الجميع، ورغم ذلك، فقد خاف هؤلاء من عودة شاور التنكيل بهم فعزموا الرحيل إلى الشام، ولكن شاور خرج إليهم وطمأنهم وحلف لهم بأنه سوف لا يتعرض لهم بسوء، فمنهم من اطمأن ومنهم من رحل[١].

وكانت هذه هي المرة الثانية التي يغدر فيها شاور، وقد علَّمت هذه الأحداث صلاح الدين درساً قاسياً حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتص بنفسه من شاور فيما بعد[٢].

■ اتفاقية مصرية صليبية

بعد خروج جيش شيركوه من مصر، تأخر عموري في القاهرة أسابيع عدة ليثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية من خلال اتفاقية يوقعها مع الوزير المصري من دون علم العاضد، ولا مشاورته، فإنه كان ممنوعاً من التصرف بعد أن حكم عليه شاور وحجبه، لاسيما أن الأخير يستبد بأمور الدولة[٣]، ونصت الاتفاقية على ما يلي:

- دفع جزية سنوية قدرهامائة ألف دينار للصليبيين.

---

(١) رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية ص١٥٩نقلًا عن أبو شامة: الروضتين

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٥١

(٣) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٣، نقلًا عن المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ٢٨٦-٢٨٧، عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٤٧

- بقاء قوة من الفرسان الصليبية تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم[١].

وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية الصليبية على مصر[٢]، ولا يمكن أن تقوم لمصر قائمة إذا استمر الوضع على ما هو عليه.

تأتي اتفاقية شاور مع الصليبيين رغم أن أسد الدين اتفق مع عموري الأول على ألا يقيم الفرنج في مصر، ولا يتسلمون منها قرية واحدة فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين[٣].

وهذه الفقرة من الاتفاق تبرز لنا مدى ما كان يحرص عليه أسد الدين - وهو ممثل نور الدين - من الحيلولة بين الصليبين وبين الحصول على موضع قدم لنفوذهم في أرض مصر، وذلك لما قد تؤدي إليه مثل هذه البداية في استفحال للنفوذ الصليبي، وبالتالي وقوع مصر في قبضة الأعداء الصليبيين، وهو ما لا يسمح به نور الدين[٤].

وقال د. حامد غنيم عن ذلك: «صحيح أن أسد الدين نجح في أن ينتزع من شاور والصليبيين مثل هذا النص، ولكن غاب عنه أن نصوص شيء والالتزام به شيء آخر»[٥].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٩، أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر تاريخ أبي الفدا ج٢ ص١١٩،طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٥٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٥٥

(٢) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٥٢

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٣٤

(٤) سعيد: الجبهة الإسلامية ص٢٢١

(٥) سعيد: المصدر نفسه ص٢٢١

وهذه الامتيازات التي أصبح الصليبيون يتمتعون بها في مصر نتيجة لجولة عام ٥٦٢هـ كانت تؤذن باقتراب الصراع حول مصر من نهايته الحاسمة، وكانت كل الدلائل توحي بأن النهاية ستكون في صالح الصليبيين، غير أن ماحدث في عام ٥٦٤هـ قلب التوقعات رأساً على عقب[١].

ولا شك في أن ما حدث كان تعبيراً عن أن التوازنات بين القوى السياسية والعسكرية لم تكن قد وصلت إلى مرحلة النضج، بحيث يتم حسم الصراع لصالح إحدى هذه القوى، فالواقع التاريخي، ينبئنا أن الشرعية السياسية للدولة الفاطمية كانت قد تدهورت، وانحدرت إلى درك مخيف، بسبب فشل الخلافة في حماية البلاد والعباد، كما أن شاور الحاكم الفعلي لم يكن أكثر من غاصب للسلطة لا يهمه سوى كرسي الحكم الذي تسنده قوة الأعداء الصليبيين[٢].

ويبدو أن الكامل شجاع بن شاور غضب على تصرف أبيه وتوقيعه الاتفاقية مع الصليبيين، لذلك راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحرمي، وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وخال صلاح الدين الأيوبي، ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، وبجمع كلمة الإسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً، فبقي الأمر كذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها في العام ٥٦٤هـ[٣].

استاء نور الدين لانسحاب شيركوه من مصر، لكنه لم يكلمه في الأمر، ثقة منه بأنه بذل جهده، وكانت ثقته فيه عظيمة، ولا شك في أن حملة أسد الدين

(١) سعيد: المصدر نفسه ص٢٢٣

(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٣

(٣) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص١٠

الثانية كانت بعيدة الأثر، صحيح أن شيركوه لم يستول على مصر نهائياً، لكنه أفلح في الإيقاع بالصليبيين، وكسر شوكتهم وإجهادهم إجهاداً بالغاً سيكون له أثر بعيد فيما يلي من الأحداث، ثم إنه لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل، فقد كانت أعداد جند الصليبيين والفاطميين أكثر من أعداد جيشه، وشاور ومن معه يقاتلون عن حياتهم قتال المستيئس، وكان خير ما يستطيع شيركوه عمله هو الانسحاب ثم العودة بالقوة الكافية لتوجيه الضربة الحاسمة[١].

■ الحملة الخامسة لملك بيت المقدس

ظلت فكرة الاستيلاء على مصر تراود مخيلة عموري الأول، ولم يتركها تذهب عن باله أبداً، خصوصاً أن الصليبيين يدركون قيمة مصر بمواردها الضخمة اقتصادياً وبشرياً وبخبرتها التاريخية وبميزتها الجغرافية[٢].

وقال ابن تغري بردي: « .. وكان الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأوليين أطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها»[٣]،لهذا فإن الاستيلاء عليها سوف يساهم بزيادة نفوذهم في المنطقة، ما قد يؤدي في المقابل إلى انخفاض الروح المعنوية لدى المسلمين عموماً، لا سيما بعد الانتفاضة الكبيرة التي قام بها نور الدين في توعيتهم بضرورة القيام بجهاد ضد الصليبيين، وكان من الواضح أن قوة نور الدين محمود وقفت لهم بالمرصاد، لهذا بعث عموري برسائل إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل حول هذا الموضوع، وطلب منه مساعدته ومَدِّه بالقوات البحرية والأسطول علاوة على الأموال الضرورية لتحقيق هذا الهدف، مقابل اقتسام مصر بين الطرفين!.

---

(١) مؤنس: نور الدين محمود ص ٣٠٢

(٢) قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٠

(٣) ابن تغري: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٥٠

ولتحقيق هدفه سعى ملك بيت المقدس إلى مصاهرة مانويل من خلال الزواج بابنة عمه مارية، وتم الزواج بتاريخ ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م[١]، وفي نهاية العام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م، أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى عموري سفارته وحدد له مطالبه وهي:

- قيام القوات الصليبية والبيزنطية بغزو مصر واحتلالها.
- يكون للإمبراطور البيزنطي نصيب من الغنائم.
- للإمبراطور حرية التصرف بأمر أنطاكية.
- التنازل للإمبراطور البيزنطي عن بعض الأملاك الصليبية.

إلا أن عموري الأول اعتبر هذه البنود بالغة التطرف، فأرسل وليم الصوري لاستئناف المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي[٢]، فجرت المباحثات مرة أخرى، ووضع الاتفاق في صيغته النهائية، ونص على ما يلي:

- قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية باحتلال مصر.
- أن تحصل الإمبراطورية البيزنطية على جزء معين من أرض مصر.
- اقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة.
- القيادة العليا للجيش الصليبي والبيزنطي لعموري الأول[٣].

وقد ترامى إلى مسامع القوة الصليبية المتواجدة على أرض مصر ما تم الاتفاق عليه، وعندما كان الطرفان على موعد لتنفيذ تلك البنود بعد توقيع الاتفاق، حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد أغرت القوة الصليبية التي بقيت في

(١) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٥٦
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٦١٢
(٣) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٥٨

القاهرة، ملكهم عموري الأول، على الدخول في مصر، وأنه يمكن احتلالها دون الحاجة إلى التعاون مع الإمبراطورية البيزنطية، لأن مصر تمر في أضعف مراحلها، فالتفكك الداخلي، والصراع بين الوزراء جعلها ممزقة الأشلاء، ومن ثم فهي أصبحت لقمة سائغة لهم، وقد وافق الإسبتارية على ذلك بينما عارض الداوية هذا الهجوم، لكن عموري الذي وصفه ابن الأثير بأنه: «لم يكن مذ خروجهم إلى الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء»[١]، قال لهم: «الرأي عندي أننا لا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلاده وفلاحيها، لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسلميها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام، إلا أن عساكر تلك القوة لم يصغوا له، وإنما شجعوه على الدخول في مصر لاسيما في ظل انشغال نور الدين محمود في النزاع مع صاحب قلعة جعبر شهاب الدين العقيلي، وقالوا له: «إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها»!.

فوافقهم الملك عموري على كُرهٍ شديد[٢]، وغلب على أمره، فلم يسعفه إلا الإذعان إزاء الإصرار الشديد من قبل الإسبتارية، الذين لم يجدوا من الأسباب ما يدعو إلى ضرورة اشتراك البيزنطيين في الغنائم، وتقرر توجيه الحملة في أكتوبر ١١٦٨م[٣]، خصوصاً مع تغير شاور عليهم، عقب الأخبار المتناثرة هنا وهناك

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٣٧

(٢) ابن الأثير: الكامل ص١٧٣٨، أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٣٢-٣٣، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٥٦

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٦١٣-٦١٤

عن تذمر أعيان الدولة والعلماء من القوات الصليبية في مصر بسبب إساءتها لأهل البلاد، «وحكموا على المسلمين حكمًا جائرًا، ونال منهم المسلمون أذى شديدًا وجورًا عظيمًا، وقهرًا زائدًا»فأضحى موقف شاور الداخلي ضعيفًا وفقد الخليفة ثقته به.

تحت هذه الظروف نقض عموري الأول المعاهدة مع المصريين، وعندما عاد وليم الصوري من سفارته إلى الإمبراطور البيزنطي لم يجده في بيت المقدس. وإزاء هذا الوضع تحركت القوات الصليبية متوجهة إلى مصر،في محرم ٥٦٤هـ/ أكتوبر١١٦٨م، من العام الخامس لحكم عموري الأول[١].

لم يدرك شاور ما يجري إلا بعد أن غادرت الحملة الصليبية عسقلان باتجاه دلتا النيل، إذ لم يكن يتوقع مطلقًا أن يقوم الملك عموري الأول بنقض المعاهدة التي عقدها معه بهذه الاستهانة، كما لا يوجد ما يبرر قيامه بمهاجمة مصر، لاسيما أنه قائم بالمحافظة على تعهداته له، بالإضافة إلى أنه ارتضى أن يكون تابعًا له، لذلك أرسل رسوله شمس الخلافة محمد بن مختار، فاجتمع بعموري في الصحراء قبل أن يصل إلى بلبيس، ولامه على قيامه بهذه الحملة، ورأى في تصرفه خيانة للمعاهدة المبرمة بين الطرفين.فرد عليه عموري الأول مبررًا موقفه بما أجراه الكامل بن شاور من مفاوضات مع نور الدين محمود، كما أن شاور أوقف دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، ثم حاول طمأنته حين زعم أنه أراد التوسط بين المصريين،وبين جماعة أوروبية جاءت من وراء البحار، قاصدة غزو مصر، ثم أضاف أنه سوف ينسحب إذا أدى شاور له مبلغًا آخر من الدنانير[٢].

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩٣٠

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٦١-٣٦٢

ورغم كل تلك الوعود التي قطعها عموري الأول إلى رسول شاور، إلا أن قواته واصلت المسير، وبلغت بلبيس بعد عشرة أيام في صحراء سيناء، وبدأ عموري على الفور عمليات الحصار، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه إلى داخلها بقوة، واستولى على المدينة بحد السيف[١]، ووقعت مذبحة مروعة، أسرف فيها الجيش الصليبي في الانتقام من سكان بلبيس، وقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال[٢]. وقد أعادت إلى الأذهان سلسلة المذابح التي أحدثها الصليبيون الغزاة عندما حلَّوا ببلاد الشام في أخريات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[٣].

ويقول رنسيمان: «تلا دخول الفرنج إلى بلبيس إجراء مذبحة مروعة»، وهلك في هذه المذبحة الأقباط والمسلمين على حد سواء، فاتحد جميع المصريين في كراهية الفرنج»[٤].

سار الجيش الصليبي إلى القاهرة، فخاف الناس أن يفعلوا بهم مثلما فعلوا بسكان بلبيس، فحملهم الخوف على الامتناع، والدفاع عن بلدهم، فحفظوه وقاتلوا دونه، وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة[٥].

وقيل أن شاور نادى بمصر إنه لا يقيم بها أحد، وأزعج الناس في النقلة، فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم، وقد ماج الناس واضطربوا، فكأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لا يعبأ والد بولده، ولا يلتفت أخ لأخيه،

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩٣٠

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٦٣

(٣) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩٧

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ق٢ ص٦١٥

(٥) ابن الأثير: الباهر ص١٣٨

ونزل الناس بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة، وعلى الطرقات مطروحين بعيالهم وأولادهم، وقد سلبوا سائر أموالهم، ينتظرون هجوم العدو على القاهرة بالسيف كما فعل بمدينة بلبيس(١).

وفي ٩ صفر أمر شاور بإحراق مدينة مصر - أي الفسطاط - قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، فقد بعث عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نور وفرّق ذلك فيها، فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء، فصار منظراً هائلاً(٢) وظلت النار متأججة فيها أربعة وخمسين يومـًا، خوفـًا من أن يملكها الصليبيون، فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة(٣)وبقيت المدينة مدة لا يسمع فيها آذان، ولا يوقد فيها مصباح، وأحرق جانبـًا من الجامع العتيق ثم اشتد الحصار(٤).

وقيل: «جاءت الأخبار بأن الفرنج جاءت إلى ثغر دمياط في سبعين مركبـًا فملكوها، ونهبوا أسواقها، وقتلوا أهلها، ثم زحفوا على الضياع، وأكثروا فيها القتل والسبي، ثم وصلوا إلى بلبيس، وكسروا عساكر الفسطاط، ودخلوا القاهرة من خلف السور عند البرقية، ثم توجهوا إلى بركة الحبش(٥) وصاروا يقتلون من

---

(١) مبارك: علي، الخطط التوفيقية الجديدة ج١ ص٦٢

(٢) مبارك: المصدر نفسه ج١ ص٦٢

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص٤٥٧

(٤) الحنبلي: أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٦٧، وعندما زارها ابن جبير في رحلته قال عنها: «وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة، عند انتساخ دولة العبيديين-أي الفاطميين-وذلك سنة ٥٦٤هـ وأكثرها الآن مستجد، والبنيان بها متصل، وهي مدينة كبيرة، والآثار قديمة حولها، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف. ابن جبير: محمد الأندلسي، رحلة ابن جبير ص٦٢، يذكر أن ابن جبير وصل إلى مصر في عام ٥٧٨هـ أي بعد حريق مصر بـأربعة عشر عامـًا.

(٥) بركة الحبش: هي أرض في وَهْدَة من الأرض واسعة، مشرفة على نيل مصر. الحموي: معجم البلدان ج١ ص٤٠١

وجدوا من المسلمين، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالاً جزيلة، وأخذوا في أسباب جبايتها، فعند ذلك أشار الوزير شاور على الخليفة بحرق مدينة الفسطاط، خوفاً من الفرنج أن يملكوها، فأذن لهم في حرقها، فجمع الوزير طائفة من العبيد وأحرقوها، فأقامت النار عمالة فيها نحو شهرين، فكان يرى دخانها من مسيرة ثلاثة أيام(١).

ونظر عموري الأول بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، وأدرك أنه لن يستطيع امتلاك مصر، وأن الحملة أخطأت السبيل(٢).

ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيَّقوا على أهلها، فضاق الأمر بشاور وضعف عن ردهم، فلجأ إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري، يذكر له مودته، ومحبته القديمة، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقون على التسليم إليه(٣)، ووعده بمال عظيم مقداره ألف ألف دينار مقابل الرحيل عن مصر، يدفع لهم منها مائة ألف دينار، فشرع شاور في مطالبة الناس بتحصيل الذهب، وضيَّق عليهم مع ما نالهم من الحريق والخوف(٤)، لكنه لم يجمع سوى خمسة آلاف دينار، بفعل الحال المتردية التي أضحى عليها سكان القاهرة بعد تلك الأحداث(٥).

يقول الصوري عن هذا العرض: «استخدم شاور كل وسيلة بارعة، وأخيراً أثرت عروضه على عقل الملك عموري الجشع، لأن المبلغ الذي وعده به كان كبيراً جداً إلى حد أن جميع موارد المملكة - أي مصر - بدت عاجزة عن دفعه،

---

(١) ابن إياس: محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور ج١ ق١ ص٢٣١-٢٣٢

(٢) طقوش: تاريخ الزنكيين ص٣٦٤

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٣٨

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٥٨

(٥) ابن الأثير: الكامل ص١٧٢٨

حتى وإن جمع من جميع الجهات، ويقال إنه وعد بمليوني قطعة ذهبية... لقد قدم هذا العرض -أي شاور-دون أن يتوقع القدرة مطلقاً على تنفيذ وعوده، بل ليمنع الملك عموري من التقدم نحو القاهرة فجأة، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الإطلاق، وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجئ، بحالتها اللادفاعية»[١].

لم تتوقف مأساة المصريين عند هذا الحد، بل ازدادت سوءاً بعد وصول أسطول صليبي إلى دلتا النيل، واستولت القوات البحرية على مدينة تنيس، وسلمتها إلى الجند للسلب والنهب، ثم حاول الأسطول أن يبحر إلى الأمام، إلا أن المصريين سدوا النيل بمراكبهم ومنعوا مروره.

وعندما سعى الأسطول إلى السيطرة على الضفة المقابلة، ظهرت إشاعة أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة، وفرض هذا تغييرا للخطط[٢].

■ الحملة الثالثة لنور الدين

في ظل كل تلك التطورات، وفي ظل هذه المحنة القاسية، أصبحت الأبواب مغلقة أمام الخليفة الفاطمي العاضد، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، كيف لا وهو خليفة عاجز، ليس له من الأمر شيء، فلا هو قادر على إنقاذ نفسه من طغيان وجبروت وتحكم شاور، ولا هو قادر على إنقاذ شعبه من المصير المجهول الذي ينتظره، لذا لم يكن أمامه أي ملجأ يلتجئ إليه، سوى نور الدين في حلب، فقد أرسل إليه كتباً يستنجده، وأرسل معها شعور النساء، وقال له: «هذه شعور نسائي من قصري، يستغثن بك، لتنقذهن من الفرنج»[٣] وقد انزعج

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩٣١

(٢) الصوري: المصدر نفسه ج٢ ص٩٣٢

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٣٨

نور الدين زنكي كثيراً،ووصف ابن الأثير حاله عندما تلقى الرسالة بقوله: «فقام نور الدين لذلك وقعد»(١).

ومعروف عن نور الدين الرجل التقي الورع أنه يتألم لحال المسلمين في كل مكان، ويرفض إراقة دماء المسلمين، وقد رأينا من قبل صبره الطويل على حكام دمشق، حتى أنه رفض أن يأخذ بلادهم بإراقة دماء وأصر على أخذها بالسلم، وهو ما حدث، لهذا فإن ابن الأثير وصف حاله بكلمتين وأوجز لكن كان وصفه دقيقاً عندما قال: «فقام نور الدين لذلك وقعد» وهو ما يؤكد انزعاجه وضيقه مما آل إليه حال أهل مصر.

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه ما لقي المسلمون من الفرنج ثم عرض عليه مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين :

- ثلث بلاد مصر.
- منح قادته إقطاعات زائدة على الثلث.
- يسمح لأسد الدين شيركوه أن يقيم في مصر(٢).

حيال هذا العرض السخي ماذا فعل نور الدين؟ هل ترك الفرصة تضيع من يديه؟ ألم يهمه من قبل انقاذ مصر وأهلها قبل أن يأخذها الصليبيون؟ فماذا حدث؟.

■ صلاح الدين يقاد إلى حتفه

شجعت رسالة العاضد، نور الدين على اتخاذ قراره الحاسم بإرسال قوة عسكرية إلى مصر، وأدرك أن الوقت قد حان بالفعل للسيطرة عليها، وتوحيد

(١) ابن الأثير: الباهر ص١٣٨

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٥٧، ابن الأثير: الباهر ص١٣٨-١٣٩

البلاد الإسلامية تحت راية الخلافة العباسية، وكذلك الوصول إلى الهدف الأسمى، وهو تحرير بيت المقدس من الصليبيين، وكل ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بعد السيطرة على مصر وضمها إلى بلاده، لهذا طلب من أسد الدين شيركوه التوجه نحو مصر.

وقال ابن الأثير: «أحبَّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه»[١].

وأوضح صلاح الدين الأيوبي: «لما وردت كتب العاضد على نور الدين، يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلتُ، وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إلي فقال لي: تجهز يا يوسف! فقلت له: والله لو أُعطيتُ مُلك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لابد من مسيره معي فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانقضى المجلس»[٢].

وكان نور الدين كثير الاعتماد على أسد الدين شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته[٣]. وذكر ابن واصل، قال صلاح الدين: «فامتنع -أي أسد الدين شيركوه- خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: «إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ص١٥٩

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه، ج١ ص١٥٩

(٣) ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٥ ص٥٠٠

تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره».

قال: «فالتفتُّ إلى عمي أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أُعطيتُ مُلك مصر ما سرتُ إليها، فقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق بها ما لا أنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوتُ إليه الضائقة، وقلة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزتُ به، وكأنما أساق إلى الموت - وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته- فلما توفي أعطاني الله من الملك ما كنتُ أتوقعه»[١].

خرج أسد الدين إلى مصر وقد صار خبيراً بمسالكها وأوضاعها[٢]،وذلك في ربيع الأول ٥٦٤هـ/ ديسمبر ١١٦٨م، وبصحبته ألفي فارس، علاوة على ستة آلاف فارس[٣] من التركمان، ومجموعة من الأمراء من بينهم ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان كارهـاً الذهاب في هذا المسير، فقد أحب نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب ملكه من بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه[٤]، إضافة إلى مملوك نور الدين، عز الدين جرديك وهو الذي لما توفي نور الدين كان نائباً عنه في قلعة حماة، والأمير غرس الدين غلج، وشرف الدين برغش[٥]، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان صاحب

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص١٥٩-١٦٠،ابن الأثير: الكامل ص١٧٤٠

(٢) عوض: في الصراع الإسلامي ص٩٨

(٣) بعض المؤرخين يذكرون أن عددهم ثمانية آلاف فارس

(٤) أبو الفدا: المختصر ج٢ ص١٢١، ابن الأثير: الباهر ص١٣٩

(٥) شرف الدين برغش: استشهد في معركة الكرك عام ٥٧٩هـ، وكان ممن أرسله نور الدين مع أسد الدين شيركوه لفتح مصر

منبج، وغيرهم[١].

فلما علم الوزير شاور بذلك، أخذ يهدد الجيش الصليبي بالتعاون مع جيش أسد الدين، ورأى الصليبيون أن البلاد قد امتنعت عنهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا إلى شاور كارهين، وقالوا نأخذ المال نتقوى به ونستكثر من الرجال ونعود إلى البلاد بقوة لا نبالي بنور الدين ولا غيره[٢]، وعند اقتراب الجيش النوري من القاهرة انسحب الجيش الصليبي، وعاد أدراجه إلى بيت المقدس.

ويرى وليم الصوري أن الجيش الصليبي لم ينسحب، وإنما عندما ظهرت شائعة عن صحة زحف أسد الدين شيركوه: «أمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس، وزوَّد نفسه هناك بالمؤن اللازمة وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة، وخرج في ٢٥ ديسمبر إلى الصحراء لمقابلة شيركوه، لكنه بعد أن توغل في داخل الصحراء، ذكر له كشافة ثقاة- كانوا يعرفون المنطقة تماماً- أن شيركوه قد عبر نهر النيل بقواته، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزات، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن، لأن التأجيل كان مشحوناً بخطر شديد، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازفة كبيرة»حتيقال: «..وتوجب علينا أن نرحل، وهكذا عادت القوات إلى بلبيس حيث انضمت إليها الفرقة التي كانت قد خلفت هناك لحراسة المدينة»[٣].

بعد كل تلك الأحداث، وبعد خمس حملات صليبية على مصر لا نعرف كيف ترك عموري الأول مصر بكل تلك السهولة؟! صحيح أن الشعب المصري

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٦٠، ذكر أبو شامة أن من بينهم أيضاً ناصح الدين خمارتكين.
أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٣٥

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٣٨

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٩٣٤

سوف يرفض الوجود الصليبي في بلاده، لكن الصليبيين خسروا الكثير من المال والرجال في الحملات السابقة، لهذا من المستغرب أنهم انسحبوا في هذه الحملة الأخيرة بإرداتهم وبكل يسر وسهولة، فهل دخول شيركوه إلى مصر أرعبهم إلى هذه الدرجة، أليس هم الذين كانوا يرعبونه، بل والحقيقة تقال أن الحرب بينهم كانت سجالاً مرة لهم ومرة عليهم.

لهذا يمكن القول أن تخاذل الملك الصليبي وتراجعه وخوفه من أسد الدين شيركوه كان السبب الرئيسي في خسارة عموري هذه المعركة الحاسمة التي لم يحدث فيها أي قتال، ومن ثم يمكن القول أن الملك الصليبي عموري كان هو السبب في انهيار الصليبيين وطردهم على يد صلاح الدين من المنطقة فيما بعد.

وفي ٧ ربيع الآخر ٥٦٤ هـ/ ٨ يناير ١١٦٩م دخل أسد الدين القاهرة، دون مقاومة تذكر، ووسط ترحيب السكان به، ثم توجه إلى العاضد فخلع عليه، وعاد إلى خيامه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات[١] الوافرة، ولم يتمكن شاور أن يمنع ذلك، لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فكتمه[٢].

ووصلت الأخبار بذلك إلى نور الدين فأمر بضرب البشائر في البلاد الإسلامية، فإنها كانت أجلّ الفتوح وأعظمها، إذ لو استولى الصليبيون على الديار المصرية لاستولوا على سائر البلاد الإسلامية[٣].

(١) الإقامات: هي الميرة ولوازم الإقامة من المطعم والمشرب. مبارك: الخطط التوفيقية ج ١٣ ص٣٩

(٢) ابن الأثير: الباهر ص ١٣٩-١٤٠

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٦٠

امتلأ شاور غيظاً وحقداً، ولم يف بما وعد به نور الدين[١]، فعاد يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلد لنور الدين، فهو يعلم جيداً، أن قادة نور الدين لن يتركوه وشأنه، لاسيما بعدما فعل ما فعل، ومارس الكثير من الممارسات المشينة بهدف الحفاظ على كرسيه فحسب.

وأيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر، فظل يتوجس خيفة منه[٢]، لذا أراد أن يدعو شيركوه ورجاله إلى وليمة ثم يقبض عليهم، إلا أن ابنه الكامل منعه من ذلك، وقال له: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين». فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً». فرد عليه: «صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على أسد الدين، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملك الفرنج البلاد»[٣].فعدل شاور عن رأيه، غير أن أسد الدين ما لبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه، حتى تمكنوا من القبض عليه وقتله[٤].

وقيل: «فلما دخل أسد الدين إلى مصر، شنق الوزير شاور، فإنه كان سبباً لدخول الفرنج إلى مصر، وكان يكاتبهم في الباطن على الدخول إلى مصر، كما فعل ابن العلقمي مع هولاكو أيام المستعصم بالله»[٥].

---

(١) باركر: الحروب الصليبية ص١٦١

(٢) سرور: محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية في مصر ص١٣٠

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١ ص١٦١، تاريخ ابن الفرات م٤ ج١ ص٢٩

(٤) سرور: الدولة الفاطمية في مصر ص١٣٠

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٣٢

ويقول ابن شداد: «.. وكان شاور يركب على قاعدة وزرائهم – أي المصريين– بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة، إلا السلطان نفسه – أي صلاح الدين– وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكبًا، وسار إلى جانبه، وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه، ففروا ونهبهم العسكر، وقبض على شاور ونزل إلى خيمة مفردة، وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص « لابد من رأسه»، على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، جزت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم[(١)].

وبمقتل شاور انتهت حياة آخر وزير من الوزراء الفاطميين الذين جلبوا على مصر الكثير من المتاعب، ولم يعد للصليبيين في مصر من يناصرهم.وقد وصف ابن تغري بردي شاور بأنه كان»خبيثًا سفاكًا للدماء، فأساء معاملة الناس»[(٢)].

سمع شيركوه بمنشور الوزارة الذي أعلنه العاضد الخاص بتوزيره، ففرح به غاية الفرح، ومضى إلى دار الخلافة[(٣)]، فخلع عليه العاضد الوزارة ولقبه بالملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه، وأقطع البلاد العساكر[(٤)]، وقصد دار الوزارة فنزلها، واستقر في الأمر، ولم يبق له منازع ولا مناوئ.

هذه الأحداث كانت تجري في مصر، ولكن ماذا عن الأحداث في الشام، هذا ما سنتناوله في الباب التالي:

---

(١) ابن واصل: المصدر نفسه ج١ ص١٦٣، ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤٠

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص٥٤٠

(٣) الغامدي: الجهاد ص٣١١

(٤) الصلابي: الدولة الزنكية ص٥٥٤

الباب السادس

وفاة الملك العادل

- الفصل الأول: سقوط قلعة جعبر
- الفصل الثاني: ختان الولد وموت الوالد

الفصل الأول

سقوط قلعة جعبر

في ظل الأحداث المتلاحقة في مصر، لم تكن الأحداث في الشام أقل منها خطورة، فقد قام الأمير غازي بن حسان المنبجي بحركة تمرد للاستقلال بمنبج، إلا أن نور الدين، الذي كان قد أقطعه إياها، تمكن في عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م، من إخمادها، عبر التدخل العسكري، حتى لا تستشري عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود دولته، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام[١]، وأقطع نور الدين منبج إلى أخي غازي، قطب الدين ينال بن حسان، وكان عاقلاً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين عام ٥٧٢هـ[٢].

مازالت فكرة ضم قلعة جعبر، تراود نور الدين، وكانت هذه القلعة قذى في عينه وشجاً[٣] في حلقه، لم يزل منصرفاً إليها، ومتهافتاً عليها، ينصب لصاحبها الحبائل[٤]، ويرصد لها المعاقل[٥]، فهي القلعة التي قُتل عندها أبوه عماد الدين زنكي أثناء محاصرتها، ورغبة نور الدين في ضمها كانت معروفة لدى العامة والخاصة، لاسيما أن القلعة من الناحية العسكرية تطل على الضفة الشرقية للفرات، وتتحكم في معبر له أهميته[٦]، لهذا لم يترك الفرصة تذهب منه عندما وقع صاحبها شهاب الدين العقيلي أسيراً في يديه حين كان يمارس هواية

(١) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٥٩

(٢) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص١٧

(٣) الشجى: هو الذي أصابه الشجا وهو الغصص. ابن منظور: لسان العرب ج٥ ص٤٠

(٤) الحبائل: المصائد وفي الحديث الشريف: « النساء حبائل الشيطان» ويكنى بالحبائل أيضاً الموت. ابن منظور: المصدر نفسه ج٢ ص٣٠٥

(٥) ابن الفرات: ناصر الدين محمد، تاريخ ابن الفرات م٤ج١ ص ٣-٤

(٦) مؤنس: نور الدين محمود ص٣٠٥

القنص والصيد، فاقتيد أسيراً إلى نور الدين في رجب ٥٦٣هـ/ إبريل ١١٦٨م، فاعتقله لكنه أحسن إليه، وطلب منه التنازل عن القلعة مقابل أعطيات مغرية من المال والإقطاع فرفض[١]، وأصر على الاحتفاظ بقلعته المنيعة التي ورثها عن أسلافه، لهذا قرر نور الدين القيام بحملة عسكرية بقيادة مجد الدين أبي بكر بن الداية لامتلاك القلعة بقوة[٢]، لكنه لم يتمكن من اقتحامها، فلم يكن أمام نور الدين سوى التفاوض مع العقيلي، وتوصل معه إلى اتفاق يقضي بأن يتنازل عن القلعة مقابل التعويض عن سروجوباب بزاعةوالملاحة، إضافة إلى عشرين ألف دينار، وكان هذا إقطاعـاً عظيمـاً جداً، ولكن لا حصن فيه»[٣] فوافق على ذلك، وكان نور الدين محمود حريصـاً على امتلاك القلاع والحصون زاهداً فيما عداها[٤].وتسلم مجد الدين القلعة في العام ٥٦٤هـ، وصعد إليها يوم السبت منتصف محرم[٥].

ويقول ابن الأثير: «بلغني أنه قيل لصاحب القلعة: أيهما أحب إليك وأحسن مقامـًا، سروج والشام أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، أما العز ففارقناه بالقلعة»[٦]!. وبذلك زالت مملكة بني عقيل عن قلعة جعبر، وكان مدة ملكهم ٨٨ عامـًا[٧].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في ج١ ص١٥٥، ابن الفرات: المصدر نفسه م٤ ج١ ص٣

(٢) يقول ابن الفرات : « فاعتقله وأحسن إليه ورغبه في المال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل، ثم أمر ابن الداية والزعفراني أن يخرجا إلى قلعة جعبر ويحاصرانها.. فلم يحصل على غرضه، فأخذ صاحبها بطريق اللين، وأشار عليه أن يأخذ عوضـاً عنها». ابن الفرات: المصدر نفسه م٤ج١ ص٣-٤

(٣) ابن الأثير: الباهر ص١٣٧

(٤) مؤنس: نور الدين محمود ص٣٠٥

(٥) الأصفهاني: سنا البرق ص٣٨

(٦) ابن الأثير: الباهر ص١٣٧

(٧) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات م٤ ج١ ص١٧

الفصل الثاني

ختان الولد وموت الوالد

بعد أسبوعين فقط من الاحتفال الذي أقامه الملك العادل في دمشق لمناسبة ختان ابنه الصالح إسماعيل، في يوم عيد الفطر، وتحديداً يوم الأربعاء ١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥ مايو ١١٧٤م، فُجعت الأمة الإسلامية بوفاة القائد المجاهد الملك العادل نور الدين محمود زنكي.

يقول أبو شامة: «شرع نور الدين في اللعب بالكرة، مع خواصه البررة، فاعترضه في حاله أمير اسمه يرنقش وقال له: باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل.

فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والناس من الختان، لاهون بأوطانهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجودبروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلا بالأتراح»[١].

وقبل ذلك كان نور الدين يتحدث مع أحد أمرائه، يدعى همام الدين مودود وهو من الأكابر معدود، وكان قديماً في أول دولته والي حلب[٢]، فقال لنور الدين: «سبحان الله من يعلم هل سنجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟، فرد عليه نور الدين: لا تقل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا؟» فمات نور الدين بعد أحد عشر يوماً، أي أقل من شهر كما قال، ومات همام الدين قبل أن يتم السنة[٣]!.

(١) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٢٠٢

(٢) أبو شامة: المصدر نفسه ج٢ ص٢٠٢

(٣) ابن الأثير: الكامل ص١٧٥٧

وذكر ابن شداد: «..وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته، عجز الأطباء عن علاجها»[١].

وقال طبيب يعرف بالرحبي[٢]، وهو من حذاق الأطباء: «استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير في دمشق، وكان يخلو فيه للتعبد، فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه، وقد تمكنت الخوانيق[٣] منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به، قلت له: كان ينبغي ألا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن، وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه، وأسرنا بالفصد[٤]، فقال: ابن ستين لا يفتصد، وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينجع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات رحمه الله»[٥].

توفي نور الدين محمود يوم الأربعاء ١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥مايو ١١٧٤م، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة[٦]وكان عمره ٥٨ عاماً ومدة ولايته منذ وفاة أبيه ثمانية وعشرين عاماً وستة أشهر وستة أيام[٧].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤٧

(٢) الرحبي: هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، أبو شامة: الروضتين ج٢ ص ٢٠٤

(٣) الخوانيق: الذبحة الصدرية

(٤) فصد: الفصد أي شق العرق ليستخرج الدم، وافتصد فلان إذا قطع عرقه. ابن منظور: لسان العرب ج٧ ص١١٠

(٥) ابن الأثير: الكامل ص١٧٥٦، ابن الأثير: الباهر ص١٦١

(٦) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٢٠٥-٢٠٦

(٧) النويري: نهاية الأرب ج٢٧ ص١٦٣، زكار: الإعلام والتبيين ص٧٩

■ حقيقة ثابتة

يمكن تقسيم الحياة السياسية لنور الدين محمود إلى ثلاث مراحل:

الأولى: استغرقت ثمانية أعوام من ٥٤١هـ إلى ٥٤٩هـ، وفي هذه المرحلة كانت حلب هي مركز المقاومة الإسلامية.

الثانية: استمرت أربعة عشر عاماً، من ٥٤٩هـ إلى ٥٦٤هـ، وفي عامه الأخير استولى على مصر، وتتميز هذه المرحلة بسيطرة نور الدين على دمشق، وخلالها أقام خطاً دفاعياً قوياً يمتد من شمال الشام حيث حلب، إلى وسط بلاد الشام حيث دمشق، وله عمقه المتمثل في إمارة الرها، وهذا الخط الدفاعي كانت تحكمه إرادة واحدة قوية ومخلصة هي إرادة نور الدين محمود.

الثالثة: تمتد خمس سنوات، تبدأ من سيطرة قوات نور الدين على مصر عام ٥٦٤هـ، وتنتهي بوفاته عام ٥٦٩هـ، وبهذه السيطرة اكتملت حلقة الحصار حول الوجود الصليبي[١] ومن ثم وجد صلاح الدين الأيوبي الأرضية الصلبة لتكملة مشوار نور الدين محمود في القضاء على الصليبيين، وهو ما توّجه بطردهم من بيت المقدس بعد الانتصار الكبير الذي حققه في معركة حطين.

■ سلالة حشدت المسلمين

يقول كارل بروكلمان في حديثه عن آل زنكي: «فلما كان الربع الثاني من القرن الثاني عشر، اعتز الإسلام، الذي أنهكت قواه منازعات السلاجقة على السيادة في سورية، بسلالة عرفت كيف تشق طريقها إلى الصدارة، وكيف تحشد قوى المسلمين جميعاً، لمدة قصيرة من الزمان على الأقل»[٢].

---

(١) سعيد: الجبهة الإسلامية ص١٨١-١٨٢

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٤٦-٣٤٧

■ انتصارات زنكي وابنه

يمكن القول أن الانتصارات التي تحققت في عهد عماد الدين زنكي، ومن بعده نور الدين محمود، كانت نتيجة لتغلب الجبهة الإسلامية على أهم مشاكلها، وهي اختفاء ظاهرة التمزق والشتات بين المسلمين، علاوة على الشعور العام الذي كان سائداً قبلهما، وهو الشعور باليأس من جدوى المقاومة ضد الصليبيين، بينما في عهدي عماد الدين ونور الدين تغير هذا الشعور، وحل محله إيمان المسلمين بقدرتهم على تغيير الواقع الذي فرضه الصليبيون بعدوانهم، وكان لهذا الإيمان الدور الكبير في إحالة الهزائم التي لحقت بنور الدين إلى انتصارات[١].

ومن ذلك يتضح أن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود قاما بدور كبير في استنهاض المسلمين من سباتهم الطويل، وحققا ما لم يحققه أحد قبلهما، فعماد الدين أعاد إمارة الرها إلى المسلمين، ونور الدين حافظ على مصر من السقوط بيد الصليبيين، وكلا الموقعتين أحدثتا هزة عنيفة بين أوساط الصليبيين، وكان لهما تأثيرهما المباشر في تحرير بيت المقدس فيما بعد على يد صلاح الدين الأيوبي الذي سار على دربهما.

ويقول آرنست باركر: «مات زنكي بعد أن أتم من الأعمال ما لم يستطع جميع أمراء المسيحية هدمه، وترك لابنه نور الدين، وتابعه صلاح الدين أمر إتمام ما بدأه من عمل، يرمي به إلى توحيد الجبهة الإسلامية وطرد الصليبيين، فلم يمض على وفاة زنكي أربعون عاماً حتى سقطت بيت المقدس في يدي صلاح الدين[٢].

---

(١) سعيد: الجبهة الإسلامية ص١٩٨

(٢) باركر: الحروب الصليبية ص١٥٧

أما ميشيل بالار فقال عن نور الدين عند استلامه الحكم: «إن فكرته المهيمنة هي استرداد وحدة الإسلام السياسية في الشرق الأدنى وذلك بتوحيد سورية، والذي يشكل مقدمة ضرورية لاسترداد الدول التي يحتلها الفرنج. ومنذ تلك اللحظة تصبح فكرة الجهاد إحدى القوى الرئيسة في الحياة السياسية والروحية...ويناشد الشعور الشعبي ليظهر بوصفه المجاهد بامتياز، والمقاتل الفريد في سبيل الدين... ويطرح على نفسه مهمة توحيد المؤمنين تحت سلطته لاسترجاع القدس والساحل (الأقاليم الساحلية للشرق اللاتيني)، وهو يشجب التعاون بين الفرنج والمسلمين، ويعد الجنود بعزة الإسلام»[١].

لعب نور الدين دوراً رئيساً في وثبة الإسلام ضد الفرنج، وبالنسبة له كان هناك تداخل بين الجهاد وإعادة التسليح المعنوي والتمسك بأهداب العقيدة القويمة، الذي تميز باستقامة عظيمة في حياته وبورع عميق، قد ناضل في آن واحد ضد الانحرافات عن العقيدة القويمة وضد الفرنج[٢].

■ رثاء نور الدين محمود

قال عماد الدين الأصفهاني: «لما توفي نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختل أمري واعتل سري وفاض دمعي وغلب حسادي وبلغ مرادهم أضدادي»[٣]. وتابع: كنت بالموصل، فسئلت نظْمَ مرثية في نور الدين، فنظمتُ بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الدِّيـن في ظُلَـمٍ لغيبـة نـوره ... والدهـرُ في غمـم لفقـد أميـرِهِ

فليـندب الإسـلامُ حامـيَ أهله ... والشـام حافـظ ملكِـهِ وثغورِهِ

(١) بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني ص٢٥٧-٢٥٨

(٢) بالار: المصدر نفسه ١٤ ص٢٦٠

(٣) الأصفهاني: سنا البرق ص٣٥

مـا أعظـمُ المقـدار في أخطـاره إذ كان هـذا الخطب في مقدوره
مـا أكثـر المتأسـفين لفقـد مَنْ قـرَّت نواظرُهُـم يفقـد نظيره

ثم قال:

مَـنْ للفرنج ومن لأسـر ملوكها مـن للهدى يبغي فَكاكَ أسيره
من للخطوب مذلـلاً لجماحها مـن للزمـان مُسَهِّـلاً لوعـورِهِ

وقال:

يـا حامليـن سـريره مهـلاً فمنْ عجب نهوضكم بحمل ثبيرِه[1]
يـا عابريـن بنعشـه أنَشـقتُمُ من صالح الأعمال نشر عبيره[2]

ورثاه بقصيدة جاء فيها:

لفقـدِ الملـكِ العـادلِ يبكـي المُلـكُ والعـدْلُ
وقـد أظلمـت الآفـاق لا شـمسٌ ولا ظـلُّ
ولمـا غـابَ نـورُ الديـ ن عنـا أظلـمَ الحفْـلُ
وزال الخصْـبُ والخيـ رُ وزاد الشـرُّ والمحْـلُ
ومـات البـأسُ والجـو دُ وعـاش اليـأسُ والبُخْلُ
وهـل ينفـق ذو العلـ م إذا مـا نَفَـقَ الجهـلُ
ومـا كـان لنـور الديـ ن لـولا نجْلُـهُ مثْـلُ[3]

■ عدله بعد موته

قيل إن إنسانـًا كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف،

(١) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة
(٢) أبو شامة: الروضتين ج٢ ص٢٤٠
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢ ص٢٨٦

فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي ويقول: «يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك»؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: « احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك»، فأرسل إلى ذلك -وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه -فطيَّب قلبه ووهبه شيئًا وأنصفه، فبكى أشّد من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين «هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه»[١].

■ مكانة نجم الدين أيوب

لم يجلس عند نور الدين أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب، وذلك للمكانة العالية التي بلغها هو وأخوه أسد الدين لديه، فبعد وفاة عماد الدين أخذ والي دمشق القلعة من نجم الدين، فاتجه أسد الدين إلى نور الدين محمود فقرَّبه إليه خصوصا عندما شاهد شجاعته وإقدامه في الحروب حتى صارت له حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره.

وعندما أراد نور الدين مُلك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين الذي مازال في دمشق، وطلب منه مساعدته في فتحها، فوافقه على ذلك، وطلبا من نور الدين إقطاعا كثيراً في دمشق إن تم لهما النصر، وحلف لهما على ذلك وبرَّ بقسمه، حتى صارا عنده في أعلى المنازل خصوصـًا نجم الدين أيوب والد القائد الكبير صلاح الدين الأيوبي.

■ منبرالقدس

كان يقين الملك العادل نور الدين زنكي بفتح بيت المقدس كبيراً لدرجة

(١) ابن الأثير: المصدر نفسه ص١٦٧

أنه أمر باتخاذ منبر للقدس، تعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفًا، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفًا، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوبًا، سيفًا في صوان الحفظ مقروبًا حتى أمر السلطان - أي صلاح الدين- في ذلك الوقت أي عام ٥٨٣هـ بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه المقدسي[1] ولقد أحرق هذا المنبر منذ سنوات عدة، إثر إحراق اليهود المسجد الأقصى بعد حرب ١٩٦٧م.

***

(١) أبو شامة: الروضتين ج٣ ص٢٥٤

المصادر والمراجع

* **ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني**

- الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، اعتنى به أبو صهيب الكرمي.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٦٩م.

* **ابن العديم: الصاحب كمال الدين بن أحمد بن أبي جرادة**

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧٩م.

* **ابن العمري: شهاب الدين ابن فضل الله العمري**

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تاريخ الحروب الصليبية والدول المتأخرة، السفر السابع والعشرون، تحقيق د. حمزة أحمد عباس - المجمع الثقافي أبو ظبي ٢٠٠٤م

* **ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم**

- تاريخ ابن الفرات، المجلد الرابع، الجزء الأول، عنى بتحرير نصه الدكتور حسن محمد الشماع

* **ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة**

- ذيل تاريخ دمشق، تاريخ أبي يعلي حمزة ابن القلانسي، مكتبة المتنبي، القاهرة

* **ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م -

* **ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر**

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية ١٩٩٨م

* **ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع**

- النوادر السلطانية، تحقيق الدكتور جمال الشيال، الطبعة الأولى

* **ابن كثير: أبو الفداء الحافظ الدمشقي**

- البداية والنهاية، اعتنى به الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٦م

* **ابن منظور: إسحاق بن مرار أبو عمرو الشيباني**

- لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م

* **ابن منقذ: أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد**

- الاعتبار، دار الهلال، القاهرة

* **ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم**

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الدكتور جمال الدين الشال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، الإدارة العامة للثقافة، الناشر دار القلم، القاهرة

* **ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي**

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م

* **أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل**

- تاريخ أبي الفدا المسمى المختصر في أخبار البشر، علق عليه محمود ديوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م

* أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسي

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٢م

- عيون الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية،تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م

* الأصفهاني: عماد الدين الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد

- سنا البرق الشامي، اختصار الفتح بن علي البنداري، تحقيق الدكتورة فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م

- الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار

* الأندلسي: محمد بن جبير

- رحلة ابن جبير، ضبطه محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف مصر

* الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي البغدادي

- معجم البلدان، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م

* الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية بيروت

* الحنبلي: أحمد ابراهيم

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ١٩٩٦م

* الذهبي: شمس الدين محمد أحمد عثمان

- سير أعلام النبلاء، المكتبة التوفيقية، قدم له الدكتور سيد علي العفاني، وحققه خيري سعيد، ٢٠٠٨م

* **القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي**

- صبح الأعشى في كتابة الإنشا، إصدار «الذخائر» العدد ١٣٠ نصف شهرية منتصف نوفمبر ٢٠٠٤، طبعة مصورة عن دار الكتب الخديوية

* **المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي**

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م
- السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م

* **النويري: شهاب الدين عبد الوهاب**

- نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب الوثائقية القومية بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

* **سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر بن قزأ وغلي بن عبد الله**

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق الدكتور كامل سلمان الجبوري، والدكتور قيس كاظم الجنابي، دار الكتب العلمية بيرت ٢٠١٣م

■ ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية المترجمة

* **الصوري: وليم**

- تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار لمؤرخ بيت المقدس، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ٢٠٠٣م

* **باركر: آرنست**

- الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الرابعة

* **بالار: ميشيل**

- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن ١١ إلى القرن، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

* **براور: يوشع**

- الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة د. قاسم عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، الطبعة الأولى ٢٠٠١م

* **بروكلمان: كارل**

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٨م

* **رنسيمان: ستيفن**

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت، طبعة ١٤١٧هـ-١٩٩٧م

* **ريموندااجيل**

- تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٨٩، نقله إلى الإنجليزية جون هيوم ولوريتال هيل، نقله إلى العربية حسين محمد عطية

■ ثالثاً: المراجع العربية

* **أبو سعيد: حامد غنيم**

- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام مصر ٢٠٠٧م

* **الجنزوري: علية عبد السميع**

- إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م
- هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م

* **الديوه جي: سعيد**

- تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العراقي ١٩٨٢م

* **الصلابي: علي محمد محمد**

- الدولة الزنكية، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧م

* **الغامدي: مسفر سالم**

- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة ١٩٨٦م

* **جوني: وفاء**

- دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلاديين، دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

* **حمادة: محمد ماهر**

- الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية -والأيوبية، دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م

* **خليل: عماد الدين**

- عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م

* **رمضان: عبد العظيم**

- تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، أعمال الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار والمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع كلية جامعة الإسكندرية في يومي ٢٢و٢٣ إبريل ١٩٨٩م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين ٢٠٠١م العدد ٢٠٠

* **زكار: سهيل**

- الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدمه د. سهيل زكار، مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

* **سرور: محمد جمال الدين**

- الدولة الفاطمية في مصر، سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي، ١٢٩٤هـ/ ١٩٧٤م

* **طقوش: محمد سهيل**

- تاريخ الزنكيين في الموصل، دار النفائس بيروت ١٩٩٩م

* **عاشور: سعيد عبد الفتاح**

- الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥م

* **عاشور: فايز حماد**

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م

❊ **عطية: حسين محمد**

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية الأزاريطة، الطبعة الاولى ١٩٨٩

❊ **علي: محمد كرد**

- خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م

❊ **عوض: محمد مؤنس أحمد**

- في الصراع الإسلامي - الصليبي..السياسة الخارجية للدولة النورية ٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٦-١١٧٤م، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية الهرم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م

❊ **قاسم: قاسم عبده**

- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ٢٠٠٩م
- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت رقم ١٤٩ مايو ١٩٩٠م

❊ **مبارك: علي باشا**

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠٠٨م

❊ **محمد: صفاء عثمان**

- مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، دار العالم العربي، الطبعة الأولى، محرم ١٤٢٩هـ/ يناير ٢٠٠٨م

* مصطفى: شاكر

- موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م

* مؤنس: حسين

- نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٩٨٤م

■ رابعاً: المجلات والأبحاث العلمية

* آل فتاح: شكيب راشد

- صورة نور الدين محمود في تاريخ الرهاوي المجهول، مجلة التربية والعلم- المجلد (١٧)، العدد (٤) لسنة ٢٠١٠، ص٥٩ قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة الموصل.

***

الفهرس

